لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

26 سلسلة حكاية مصر

الهيئة العامة لقصور الثقافة

حكاية
مشعلي التورات

أحمد بهاء الدين شعبان

تقديم
أحمد فؤاد نجم

الكتاب مهم في موضوعه، وجديد في تناوله إذ يتعلق بدراسة تاريخ الحركة الطلابية في مصر، ودور الطلاب التاريخي في إشعال الثورات.

وبالكتاب عرض تاريخ الحركة الطلابية وبعض الشهادات الذاتية لأبطال الحركة الطلابية في السبعينيات من القرن الماضي، والذين أصبحوا رموزا للنضال الوطني.

الغلاف.. د. خالد سرور

الهيئة العامة لقصور الثقافة

www.gocp.gov.eg

الثمن : جنيهان

حكاية
مشعلـى الثـورات

أحمد بهاء الدين شعبان

تقديم
أحمد فؤاد نجم

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

سلسلة
حكاية مصر

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
سعد عبد الرحمن

أمين عام النشر
محمد أبو المجد

مدير عام النشر
ابتهال العسلى

الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• حكاية مشعلى الثورات
• أحمد بهاء الدين شعبان
القاهرة 2014م
• تصميم الغلاف:
د. خالد سرور
• المراجعة اللغوية: محمود أبو عيشة
• رقم الإيداع: ٢٥١٦/ ٢٠١٤
• الترقيم الدولى: 978-977-718-616-2
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير
د. محمد عفيفى

مدير التحرير
نور الهدى عبد المنعم

سكرتير التحرير
أمينة عبد الله

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

26

سلسلة شهرية للشباب تعنى بنشر تاريخ مصر

حكاية مشعلى الثورات

الإهـــداء

إلى شهداء الثورة
وإلى الذين ضحوا، فى صمت، من أجلها
جيلاً بعد جيل
وإلى القائد الطلابى الفذ،
والمفكر والسياسى البارز،
الدكتورأحمد عبد الله رزة، الذى"اختار يوم الهول يوم وداع "،
فرحل عن دنيانا يوم ٥ يونيو ٢٠٠٦،
وهو فى قمة عطائه،
وبلادنا أشد ماتكون حاجة له ولأمثاله من المحبين النابهين
وإلى الشباب المصرى المبدع
وإلى ابنى عمرو
الذى شهد فى عمره ثورتين فريدتين
وإلى شعب مصر العظيم
أولاً ... وأخيراً .

انتفاضة الجامعة المجيدة
أحمد فؤاد نجم

" أنا رحت القلعة وشفت ياسين
حواليه العسكر والزنانتزين
والشوم والبوم وكلاب الروم
ياخسارة يا أزهار البساتين
عيَّطى يابهية على القوانين !

***

أنا شفت شباب الجامعة الزين
أحمد وبهاء
والكردى وزين *
حارمينهم حتى الشوف بالعين
وف عز الضهر مغميين
عيَّطى يابهية على القوانين !

***

وقابلت سهـام*
فى كلام إنسان
منقـوش ومأثـر ف الجـدران
عن مصر وعن عـمال حلوان
مظـاليـم العهـد المعتقليـن
عـيِّطى يابهية على القوانين !

***

....
واسمعى يابلدنـا خلاصة القـول
وباقولك أهُـه
وانا قـد القول
مش ممكن كده
حيحـول الحـول
على كده والناس يفضلوا ساكتين
خليكوا فاكرين
خليكوا شاهدين
أنا رحت القلعـة وشفت ياسين"

***

والله زمان يامصر . كنا اتنين فاضلين من صحبة الستينيات . الشيخ إمام وأنا ، وفى مكتب المفتش فى مبنى لاظوغلى الشهير قال البيه المفتش :

ـ كفّارة ! . . . حمد الله على السلامة ! .

ماحدش فينا رد . فاستأنف سيادته :

ـ أنا عارف إنكم خارجين من المعتقل واخدين على خاطركم ! . لكن أحب أقول لكم إن التلات سنين دول مجرد شدّة ودن ! ! .

ماحدش فينا رد ! .

ـ لكن ربنا برضه مابيسبش ! . أهم اللى اعتقلوكم أصبحوا فى المعتقل وانتو خارجين للحرية ومبروك ! .

ماحدش فينا رد ! .

ـ طبعًا انا جايبكم هنا علشان أنبهكم إن كل الأراضيش اللى كانوا حواليكم من تلات سنين . . خلاص ! .

قلت له :

ـ ضلمتوها يعنى ؟ ! .

قال لى :

ـ تقريبًا ! .

***

وخرجنا فى صمت ، الشيخ إمام وأنا .

وقال الشيخ إمام :

ـ دى مصر بقت تخوف ! .

قلت له :

ـ واحنا عندنا إيه نخاف عليه يا إمّه ؟ ! .

قال لى :

ـ الناس يابو النجوم.

ماقدرتش أرد !. أو ماحبيتش أرد !. أو مالقيتش كلام أرد بيه !.

وبالفعل وجدنا أنفسنا لوحدنا فى جوف بيت "سى على الشعبينى"، بيتنا فى "حوش قدم" !.

***

وذات أجمل صباح سمعنا اللى بينده فى الحوّش:

ـ ياشيخ إمام... يانجم !.

ـ مين ؟ !.

ـ إحنا طلبة الجامعة !.

ـ جامعة إيه ؟ !.

ـ جامعة القاهرة !.

ـ أهلاً وسهلاً .

ـ إنت مبسوط كده وانت باصص علينا من فوق ؟ !.

ـ طب اطلعوا... !.

***

وطلعوا. وسمعنا منهم العجب !. خطفونا من وحدتنا، وونسونا !.

وغنينا معهم وغنينا لهم:

" يافرحة هلّت واحنا حزانى

ياميت حلاوة عليك ياشباب"

و" رجعوا التلامذة

ياعم حمزة
للجد تانى
يامصر إنت اللى باقية
وانتى
قطف الأمانى".

***

انتفاضة الطلبة المجيدة، اللى أشرق على الدنيا صبحها الجميل فى نهايات عام ١٩٧١، لما يكتب عنها واحد من صُناعها، نتفرج ونفرح ونتعلم!.

ولما يكون هذا الصانع هو أحمد بهاء الدين شعبان.. تبقى الصنعة على أصولها!".

* أحمد عبد الله، وأحمد بهاء الدين شعبان، وشوقى الكردى، وزين العابدين فؤاد، وسهام صبرى.. من قادة الحركة الوطنية لطلاب مصر فى السبعينيات.

صفحات من نضال الحركة الطلابية والشبابية المصرية

" أنتم يا من ستظهرون بعد الطوفان
الذى غرقنا فيه
اذكروا ، حين تتحدثون عن ضعفنا
الزمن الأسود
الذى نجوتم منه ! .

لقد مضينا نغير بلداً ببلد
أكثر مما نغير حذاءً بحذاء
نخوض حرب الطبقات
ويملكنا اليأس
حين نجد الظلم ولا نجد من يثور عليه ! .

نحن الذين أردنا أن نمهد الأرض للصداقة
لم نستطع أن يكون بعضنا صديقًا للبعض
أما أنتم، فعندما يأتى الزمن
الذى يكون فيه الإنسان عونًا للإنسان
فاذكرونا
وسامحونا !!!"

برتولت بريخت

المقدمة
فى وصل ماانقطع !

هذا الكتاب مُوَجّهٌ ، فى المقام الأول ، إلى الأجيال الجديدة من أبناء وطننا ، وهى صفحات ، كُتبت فى أغلبها ، قبل سنوات طويلة من ثورة الشعب المصرى العظيم فى ٢٥ يناير ، و ٣٠ يونيو ، وما قبلهما ، ومابعدهما ، وما بينهما ، من أحداث جسام ، ودور الشباب فيها وتضحياته ، واضح وغير منكور .

فهذه الأجيال قد ظُلمت ظلماً بيّناً ، حينما حُرمت - عن قصدٍ - من حقها فى أن تعرف تاريخ وطنها وشعبها حق المعرفة ، و ظُلمت ظلماً بيّناً ، مرةً أخرى ، حينما نُزع من وعيها أنها تنتمى إلى أمة جبّارةٍ ، رفيعة المقام ، عظيمة الإسهام فى مسيرة بناء الحضارة الإنسانية ، وظُلمت ظلماً بيّناً أخيراً ، حينما أُهملت ، عن سابق إصرارٍ وترصّدٍ ، ودُفعت دفعاً للكفران بهذه الأرض الطيبة ، والبحث

عن ملاذٍ بديلٍ مستحيل في أراضٍ غريبةٍ، بعد أن كانت الطبقة الرأسمالية الفاسدة الحاكمة قد أحكمت قبضتها على آليات صنع القرار السياسي والاقتصادي في البلاد، ونجحت - نجاحًا كبيرًا - في إنجاز أكبر عملية تجريف للثروة العامة، ونهبها وتهريبها خارج البلاد، فتركتها مقفرةً، خاويةً على عروشها، بعد أن أتت على الأخضر واليابس فيها!.

غير أن الأخطر من عملية "تجريف الثروة العامة"، هو أن هذه الطبقة، التي يسميها الدكتور "نادر الفرجاني"، عالم الاقتصاد والسياسة المعروف، "التشكيل العصابي"، الذي اختطف مصر في العقود الأخيرة، قد خططت لإتمام عملية موازية لـ "تجريف العقل" المصري، والهيمنة على فضاء الوجدان والضمير لـ "المصريين المحدثين"، حتى تنصاع لها مصر "المحروسة" وناسها، كما تتصور وتتمنى!.

وكما انتهب هذا "التشكيل العصابي"، بجناحيه (المدني، والمتستر برداء الدين)، ثروة مصر المادية والروحية، بكل أساليب الاحتيال والتدليس والترويع والمراوغة، فهو قد سعى حثيثًا إلى استكمال مهمته بتجريدها من رأسمالها الفكري والثقافي، الحاضر والمستقبلي، عن طريق عمليات "غسيل مخ" ممنهجة، استهدفت تدمير العقل، واستلاب الوعي، وتغييب الإدراك، لكامل المصريين، عمومًا، وللأجيال الشابّة، صاحبة الحق في الغد، بشكلٍ خاص، حتى يُحكم هذا التشكيل العصابي قبضته على مستقبل هذا الوطن،

مثلما أحكم القبضة على ماضيه وحاضره، فتدين مصر له، إلى الأبد، ويضمن إذعانها وخضوعها، من دون مقاومة، كما يتمنى، حتى النهاية!.

وقد كان السلاح الأول للنجاح فى هذه العملية البغيضة هو زرع اليأس والإحباط فى أعماقنا، وتأكيد عناصر فقدان الثقة فى قدراتنا، وإشاعة "حزمة" من المفاهيم المغلوطة الخطيرة، تنتهى إلى اليقين بأنه من المستحيل تغيير الأوضاع فى بلادنا، وأن: "مافيش فايدة" من محاولة التصدى لحلف الفساد والاستبداد، أو وضع حد لزواج "الثروة والسلطة"، المدجج بالسلاح، والمشمول بعناية الولايات المتحدة الأمريكية والغرب والصهيونية العالمية، والمسئول عن كل الكوارث التى حاقت بنا، فى السنوات الأخيرة!.

ومن أجل المساهمة، ولو بجهدٍ متواضعٍ فى الرد على هذه الدعاوى الظالمة، التى تتهم الشعب المصرى بخمود الهمّة، وانعدام النخوة، وفقدان الإرادة، والعجز عن رفع الرأس، والاستكانة للقهر، والإذعان لصاحب السلطان والصولجان، رأيت لأنه من المفيد نشر هذه الصفحات التى تعرض لأيام مجيدة من أنصع أيام نضال شعبنا، حينما خرج، عن بكرة أبيه، يزود عن وطنه، ويطلب استقلاله، ويدفع الأذى عن كرامته، ويحمى لقمة خبزه ومصالحه من العدوان، ويثبت للجميع كذب الادعاء المُغرض، الذى روّجَ له أعداؤنا، بأننا شعب "تجمعه صُفّارة... ويُفرّقه كرباج!"، كما يهرفون، وكما يحاولون أن يُرسِّخوا فى أعماق نفوسنا، وأن يزرعوا فى تلافيف

عقولنا، حتى يستديم تسلطهم على مصائرنا، وتتأبد سيطرتهم على أرزاقنا وحرياتنا!.

***

القسم الأول من هذا الكتاب، كتبته خصيصًا للأجيال الجديدة من الشباب والطلاب المصريين، من المساهمين فى صناعة الثورتين العظيمتين: ٢٥ يناير ٢٠١١ - ٣٠ يونيو ٢٠١٣.

وأملتُ، من خلاله، أن آخذهم فى رحلة سريعة إلى لحظات من تاريخ نضال أسلافهم من مواطنى وشباب وطلاب هذا الوطن العظيم، (وبعضها كان لى عظيم الشرف أن أكون مشاركًا بنصيب متواضع فى وقائعه)، لكى يعلم الحاضرون، أنهم أبناء وأحفاد أولئك الذين لم يترددوا لحظة، حينما دعا الداعى، عن التضحية فى سبيل مُثلهم العُليا، ومن أجل خير الوطن والشعب!.

والهدف الأساسى الذى توخيته من كتابة هذه الصفحات، أن يتأكدوا بالدليل القاطع أنهم ورثة تاريخ نضالى ممتد وفذ، وأن ما أنجزوه فى السنوات الأخيرة ليست ضربة حظٍ معجزة، أو إنجازهم وحدهم، أتوا به فى سياق مقطوع الصلة عن المسيرة النضالية الممتدة لشعبهم، وإنما هو محصلة موضوعية، لجهودهم وتضحياتهم، مضافًا إليها جهود وتضحيات أسطورية، فى ظروف بالغة الصعوبة، من جيل الآباء والأجداد، وأن راية الثورة والوطنية التى يحملونها الآن، وصلت إليهم خفّاقة، بأعمال وتضحيات هائلة من جيل الجدود والآباء، الذين لم يبخلوا على الوطن وحريته بالدم والنفيس،

ومن ثم فإن واجبهم أن يحافظوا على هذا التراث العظيم، حتى يسلمونه كاملاً غير منقوص، لأبنائهم وأحفادهم، وأن يحموا راية الوطن الغالى من التدنيس، وأن يحفظوا لها وله، قدسيتهما وطهارتهما.

وقد آثرت أن أهدى صفحات هذا القسم، باسمهم وباسم كل الذين عشقوا تراب هذه الأرض، وأفنوا عمرهم عملاً من أجل تقدمها ورفعة شأنها، وباسمى، إلى واحد من أزكى وأنبل رموزها ومحبيها، القائد الطلابى الفذ، والمفكر والسياسى البارز، الدكتورأحمد عبد الله رزة، الذى "اختار يوم الهول يوم وداع"، فرحل عن دنيانا يوم ٥ يونيو ٢٠٠٦، وهو فى قمة عطائه، وبلادنا أشد ماتكون حاجة له ولأمثاله من المحبين النابهين، متمنيًا أن يكون فى حضوره، رغم الغياب، ما يحفز على السير فوق الدرب الذى سار عليه، وعبّدته، من قبل، أقدام الراحلين العظام، من نبت هذه الأرض المعطاءة الطيبة، ومنهم من أتى ذكره فى هذه الصفحات، كالزميلة المناضلة الراحلة "سهام صبرى"، ومن يحتاج لصفحات طويلة للتذكير بعطائه، كالمفكر والمناضل العظيم الراحل الدكتور "محمد السيد سعيد"، وغيرهما من كبار الوطنيين والمناضلين المصريين، الذين ارتبطوا بحركة الطلاب والشباب، وكانوا منارات للثورة والوطنية، والعلم والوعى والتقدم.

***

أما القسم الثانى من هذه الصفحات فقد كتب بُعيد أيامٍ من الانتفاضة الشعبية المجيدة فى ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧.

وقتها كنت مُطارداً بما اعتبرته: "شرف لا أدّعيه، وتهمة لا أنفيها"!.

شرف المشاركة فى التحريض على، والمساهمة فى، قيادة الانتفاضة المجيدة، وتهمة حث الجماهير على النزول إلى الشارع، دفاعًا عن حقها المسلوب واستعادةً لوجودها المستباح، عقب الرفع العشوائى لأسعار جميع السلع الأساسية، التى يقتات بها الشعب، ويُبقى بها على حياته فى حدود الكفاف، فى تصرف أحمق صادم من السلطة، وعقب سنوات من الوعود بالرفاه الاقتصادى، والترويج لأحلام الرخاء القادم مع السياسات الجديدة، وكنتيجة طبعية للانحياز المطلق للولايات المتحدة الأمريكية، والسير فى ركابها، والدفاع عن استراتيجياتها ومصالحها، والانصياع لتعليمات وتوجيهات الهيئات المالية الدولية التابعة لها!.

ووسط حملة إعلامية بالغة العنف والشراسة، شارك فيها رأس النظام، وأركانه الكبار، راحت أجهزة الدولة ومؤسساتها، السياسية والأمنية والإعلامية، تكيل الاتهامات الجزافية لمن وصفتهم بعصابات "المحرضين"، و"المخربين"، و"الشيوعيين، الذين يريدون دفع البلاد للفوضى والدمار!"، فى حملة ترويع هائلة، استهدفت التمويه على الأسباب الموضوعية للانفجار، والتعمية على الدوافع الفعلية للغضب الشعبى العارم، والمتمثلة فى تصاعد وتيرة الاستغلال والنهب المنظم للثروة الوطنية، ولناتج جهد وعرق الملايين من أبناء الشعب، تحت مسميات شتى، مثل "الانفتاح الاقتصادى"،

وبرامج "الخصخصة"، و"التحرير"، و"إعادة الهيكلة"، و"التصحيح" وخلافه، والتى عنت، جميعها، المزيد من المعاناة والقمع، للطبقات الفقيرة، والفئات المحرومة، والمحدودة الدخل، والمزيد من الإفقار والتجويع للملايين من المواطنين، الأمر الذى تضاعفت وتيرته، عشرات المرات، فى العقود التالية، ولا زالت تتصاعد حتى الآن، مخلفةً وراءها ظروفًا موضوعية مسببة لتفاقم عناصر الظلم الاجتماعى، وتنامى الغضب الطبقى، والاحتقان السياسى والاقتصادى المُهيئ للانفجار!.

***

وقد ضممت إلى ملاحق هذا الكتاب مجموعة من القصائد التى كتبها كبار المبدعين، عن شباب مصر وطلابها، وعن نضالهم المتميز، وكذلك بعض الوثائق التاريخية، وعددًا من الصور المهمة، رأيت فى وضعها تحت الأنظار ما يُجَسِّدُ لشبابنا بعض اللحظات المهمة من تاريخ بلدنا الحديث، ويُسلط عليها الأضواء لأهميتها ودلالاتها.

ولعلى فى الأخير أكون قد ساهمت، ولو بالقليل، فى استدعاء صفحات خالدة من ماضينا، لا تقديسًا له، وإنما لكى يكون، بحلوه ومُرّه، بنجاحاته وإخفاقاته، خير عون لنا ودرس، يساعدنا على استجلاء ملامح اللحظة الراهنة، والتحسب للمستقبل، والتأهب لمواجهة استحقاقاته وتحدياته.

ويبقى أن أشير أن قسمًا من مواد هذا الكتاب، كانت قد صدرت عام ٢٠٠٩، فى طبعة محدودة التوزيع.

وقد أعدت صياغتها، وأضفت لها صفحات جديدة، وعمّقت أجزاء أخرى، ونقّحتها، وأعدت ترتيب صفحاتها، وغيرت من عنوانه، حتى يكون مناسبًا للحظة الثورة الراهنة، بتحدياتها وتطوراتها.

أحمد بهاء الدين شعبان

القاهرة-يناير ٢٠١٤

(١)
نشأة القاعدة الطلابية (الحديثة)، في عهد "محمد على باشا" وخلفائه

دور تاريخى عريق :

من المُسلّم به أن دور الحركة الطلابية المصرية، فى النضال الوطنى دورعريق قلَّ أن يكون له نظير، سواء فى امتداداته التاريخية، أو فى عمقه واتساع مدى تأثيره، وهو ما دفع باحث مرموق فى شئون مصر والمنطقة، هو "والترلاكير" إلى تقرير أن "التاريخ لا يعرف مجتمعًا لعب فيه الطلبة، والمثقفون بصفة عامة، دوراً طليعيًا فى الحركة الوطنية، كما حدث فى مصر" (١).

وقد تأسست القاعدة الطلابية الحديثة فى مصر على القواعد والأسس التى أرساها "عزيز مصر"، "محمد على باشا"، منذ ما يزيد على مائتى عام، وهى قواعد تجذّرت فى التربة المصرية، حتى أينعت وأعطت ثمارها الحلوة الوافرة.

وكما هو معرف، فقد وصل "محمد على" إلى كرسى الحكم، عام ١٨٠٥، بعد هبّة شعبية كبيرة، أطاحت بالوالى التركى "خورشيد باشا"، وولت "محمد علىّ" فى موقعه.

وسرعان ما أدرك الوالى الجديد، بذكائه اللامع، أنه يحكم دولة كبيرة، تملك مقومات هائلة للتقدم والرقى، إذا أُحسن سياسة أمورها، رغم تردى أحوالها، بسبب طول عصور الاحتلال والانحلال، والنهب والاستغلال، الذى تعرضت له، على مدار قرون عديدة ممتدة.

كانت بنية المجتمع الإقطاعى الشرقى، المتخلف، السائدة، أعجز من أن تفى بمتطلبات تحقيق طموحات "محمد على" الكبيرة، ومن ثم اتجه إلى بناء منظومة جديدة للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى المجتمع، مبنية على الاحتكار الكامل لمصادر الثروة: الأرض والعمل والإنتاج، والهيمنة الكلية على معظم مناحى النشاط فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة، فى ظل حكم مطلق يرتكز على القوة العسكرية، الأمر الذى جعله قادراً على تجميع مصادر القدرة الاقتصادية والحربية فى قبضة يده، وهو الشرط الضرورى الذى كان يراه لازمًا لبناء إمبراطورية ممتدة الأطراف، ركيزتها "مصر المحروسة"، يحكمها هو، وتبقى فى ذريته من بعده!.

آمن "محمد على" بأن مفتاح عودة مصر إلى ازدهارها الحضارى، هو بناء جيش حديث وقوى، يحقق حلمه فى بناء إمبراطورية كبرى

متطورة، تؤول إلى أبنائه وأحفاده من بعده، غير أنه أدرك أن دونه وتحقيق هذا الحلم أمور شتى، فى مقدمتها الوضع البدائى للتعليم الذى كان يتم تحصيله فى البلاد، ومن ثم اتجه إلى رسم وتنفيذ الخطط لنشر نظام من التعليم الحديث، يهدف إلى "تنوير أذهان المصريين"، وتربية أجيال شابة منهم على أصول العلوم المعاصرة، ذلك أنه لا جيش ولا تقدم إلا على أساس من التعليم المتقدم، خاصة فى ظل ما ذكره للقنصل الروسى "دوهاميل"، من أن مصر، حين تولى أمرها، "لم يكن بها سوى نحو مائتى شخص يعرفون القراءة والكتابة" وحسب! (٢).

وكما هو معروف فقد كان ارتطام مصر بالحضارة الغربية صادماً وحاداً، حينما وُضعت فى مواجهة الحملة الفرنسية التى قادها "نابليون بونابارت"، عام١٧٩٨م، حيث تَكَشّفَ العجز الكبير للنظم الحاكمة الهرمة، الموروثة من عصور المماليك والعثمانيين، وفشلها فى مواجهة الإنجازات العلمية والعسكرية الحديثة للدول الأوروبية، المعتمدة على العقل والعلم والمعرفة والتكنولوجيا المتطورة، وهو ما دفع المؤرخ الكبير "عبد الرحمن الجبرتى" للاندهاش البالغ، فصاح مبهوراً، حينما زار مكتبة ومعامل بحث "المعهد المصرى" الذى أنشأه الفرنسيون لدراسة أحوال مصر وجغرافيتها وطبيعتها وثرواتها، لخدمة أغراض الاحتلال، وشاهد بعض الحيل العلمية، الكيميائية والفيزيائية البسيطة، مُقدراً فى ذهول أنه رأى: "أشياء لا تفهمها عقول مثل عقولنا!" (٣).

احترم "الباشا" احترامًا ملحوظًا "الأزهر الشريف"، واهتم بحاجاته، واعتنى بدعم دوره فى الحفاظ على الدراسات الدينية والفقهية وإحياء التراث والموروث الإسلامى. لكنه بثاقب فكره رأى أن هذا التعليم التقليدى وحده غير كافٍ لتحقيق طموحاته الكبرى.

ثورتا القاهرة وفشل الحملة الفرنسية

ويُذكر أن طلاب ومشايخ الأزهر كانوا هم من أشعل ثورتى القاهرة، الأولى والثانية، التى أحالت حياة جنود "الفرنسيس" إلى جحيم، ولم تتمكن القوات الغازية من إخمادهما إلا بحمامات الدم ونشر الخراب وإشاعة القتل والترويع، وتحت وطأة الرفض الشعبى العارم، والثورة الوطنية التى قادها العلماء والتجّار ومثقفو الأمة، وكان جيشها المغوار من عوام الناس، والبسطاء، و"الحرافيش"، الذين أحالوا أرض مصر إلى جحيم تحت أقدام قوات الغزو، الأمر الذى اضطر "نابليون" إلى الهرب، قبل أن يناله ما نال نائبه الجنرال "كليبر"، من مصير، حيث قُتل بطُعنة نجلاء، أردته قتيلاً، على يد "سليمان الحلبى"، فدائى بطل من طلاب العلم فى الأزهر، ومن أبناء سوريا الشقيقة.

ولذا فقد أولى "محمد على" اهتمامًا فائقًا لإنشاء "المدارس والمؤسسات التى تكفل إعداد الرجال الذين تحتاج إليهم الحياة المدنية فى شتى فروع الإدارة والحكومة والجيش والبحرية والصناعة والمنشآت العمرانية، أى إعداد تلك الصفوة التى كان يترجى أن

تُحدث فى العقلية المصرية، بمرور الوقت، تطوراً ملحوظ الأثر، يُخرج تفكير المصريين من ذلك النطاق الضيِّق، نطاق العصور الماضية إلى أفق الحضارة (الحديثة)، وإنه لفسيح" (٤).

واستدعى هذا التوجه أن يبدأ "الباشا" بإنشاء "المدارس"، وبدأها بـ"المدارس الحربية لتخريج الضباط، كما أنشأ "الدرسخانة الملكية" لإعداد موظفين يُستخدمون فى دواوين الحكومة وأقلامها، و"مدرسة الإدارة الملكية" لإعداد طائفة من الموظفين والمترجمين، وفى فترات مختلفة أنشئت كذلك مدارس الطب البشرى والطب البيطرى والزراعة و"المهندسخانة" والألسن، وغيرها" (٥).

وكانت "مدرسة القلعة" أول مدرسة أنشأها "محمد على باشا" لأبناء المماليك، بعد مذبحة ١٨١١، ثم أنشأ مدرسة حربية لإعداد ضباط مدربين على الأسلحة الحديثة فى "أسوان"، والمدارس "الابتدائية" و"التجهيزية" و"الخصوصية" التى أدرج في عدادها كل من مدرسة الهندسة ومدرسة المدفعية ومدرسة الفرسان ومدرسة الطب البشرى ومدرسة الطب البيطرى ومدرسة الألسن لتعليم الترجمة واللغات (٦).

كما أنشئت "المكاتب الابتدائية" بالأقاليم، (بلغ عدد هذه المكاتب فى المدن والقرى، عام ١٨٣٦ سبعة وستين مكتبًا)، عدا "الكتاتيب" القديمة التى يُعلَّم فيها "الفقهاء" أبناء الريف والحضر القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة، وتكفلت الحكومة بنفقات التلاميذ الذين يدرسون بها (٧).

البعثات:

واستكمالا لمقومات المجتمع الطلابى والعلمى الناشئ ابتعث "محمد على باشا" المئات من نابهى الطلاب إلى الخارج، بهدف إعداد "نواة صالحة من الرجال المستنيرين، يمكن إشراكهم فى شئون الحكم والإدارة، ويستطيع الاطمئنان إلى حُسن قيامهم بالأعمال الفنية، حتى يُستغنى عن الأجانب فى النهاية" (٨).

ومن أجل تحقيق هذه الغاية بدأ "الباشا" بإيفاد البعوث لإعداد المعلمين والصُنّاع والأطباء ورجال الإدارة وضباط البر والبحر، ودفعهم لتعلم كافة العلوم والفنون والمهارات الحديثة: "سبك الحروف والطباعة والصباغة وصناعة الفخار والزجاج والأسمنت والتقطير وتكرير السكر وتبييض الثياب وبناء السفن و"الميكانيكا" و"الهيدروليكا" وتركيب الآلات وفنون الزراعة والطبيعة والنبات والاقتصاد الزراعى والتاريخ الطبيعى والمعادن والكيمياء وفروع الاقتصاد السياسى و"الطبوغرافية" والفنون العسكرية والإدارة الملكية والمالية والعدلية (المحاماة) وعلم الهندسة البحرية وعلم المدفعية والصيدلة واللغات الحية والترجمة (٩).

وتوجهت هذه البعثات إلى إيطاليا، (أعوام: ١٨٠٩، ١٨١٣، ١٨١٨، ١٨١٩، ..)، وفرنسا، (أعوام: ١٨٢٦، ١٨٢٨، ١٨٢٩، ١٨٣٠، ١٨٣٨، ١٨٤٥، ١٨٤٧، ١٨٤٨)، كما اتجهت بعثات أخرى إلى إنجلترا، والنمسا وغيرهما من البلدان المتقدمة.

وكان من أبرز أعضاء هذه البعثات "حسن الإسكندرانى"، الذى

تولى قيادة الأسطول المصرى، و"مظهر باشا" مهندس القناطر الخيرية، والشيخ "رفاعة رافع الطهطاوى"، وغيرهم من رموز النهضة الحضارية المصرية الحديثة.

تدهور التعليم ضحية انكسار "الحلم الإمبراطورى":

وحينما تعرّض مشروع "محمد على"، أو حلمه "الإمبراطورى"، للحصار، بسبب تدخّل الدول الاستعمارية الكبرى، التى تجمّعت لتوجيه ضربة عنيفة للإسطول المصرى، فى موقعة "نفارين"، فُرض على "الباشا" تقليص عدد الجند، بموجب تسوية عام ١٨٤١، وفُككت المدارس العسكرية، وتعثرت المدارس العادية، بسبب الأزمة المالية، وأغلق أبواب العديد من أبرزها، وتدنت الاعتمادات الخاصة ببند التعليم فى الموازنة، الأمر الذى أدى إلى هبوط حاد فى أوضاع المؤسسات التعليمية وأحوال طلبة العلم، وتصاعدت مشكلات التعطل عن العمل بين المتعلمين، نتيجة انكماش ميزانية التعليم وتعطل العديد من المشاريع الاقتصادية !(١٠).

(٢)
على مبارك أبو التعليم المصرى الحديث

وقد برز فى التاريخ المصرى شخصيات عظيمة لعبت دوراً كبيراً فى وضع أسس وركائز التعليم المصرى الحديث، ومن ثم فى تكوين القاعدة الطلابية وتأسيس وعيها الوطنى والإنسانى الراهن، وفى مقدمة هذه الشخصيات "على مبارك"، الذى وُلد فى قرية "برنبال"، (إحدى قرى مركز دكرنس بمحافظة الدقهلية، عام ١٨٢٤م)، وكان لنبوغه وتفوقه فى العديد من مجالات الفكر والعلم والعمل: (الهندسة، والعسكرية، وعلوم الإدارة، والتنظيم، والتربية ... إلخ)، رغم عَوَز أسرته وصعوبات النشأة والحياة، الفضل فى اختياره ضمن المجموعة التى ابتعثها "محمد على" عام ١٨٤٥ لمصاحبة أنجاله فى رحلتهم التعليمية إلى فرنسا.

وقد تولى "على مبارك" فى عهدى "سعيد باشا" و"إسماعيل باشا" موقع "وكالة المدارس"، أى "مدير المدارس"، ثم نظارة (وزارة) المعارف مرتين: الأولى عام ١٨٧٨ فى وزارة "نوبار باشا"، والثانية عام ١٨٨٨ فى وزارة "رياض باشا"، واستطاع فيهما أن يضاعف أعداد المدارس والطلاب، بعد أن أوكلت إليه مسؤولية مهمات التخطيط والإشراف على نشر التعليم وتطوير أحواله فى ربوع البلاد، فأبلى بلاءً حسنًا، رغم فقر الإمكانات، والظروف المعاكسة، والدسائس والمشكلات.

ويذكر "على مبارك" فى سيرة حياته، أنه "فى مدة نظارتى كنت أباشر تأليف كتب المدارس بنفسى مع بعض المعلمين، وجعلت بها مطبعة حروف، ومطبعة حجر، طُبع بها للمدارس الحربية والآلايات (جمع آلاى بمعنى الفيلق) الجهادية، نحو ستين ألف نسخة من كتب متنوعة، غير ما طُبع من كل فن بمطبعة الحجر للمهندسخانة (مدرسة الهندسة، كلية الهندسة فيما بعد)، وملحقاتها من الكتب ذات الأطالس والرسومات وغيرها مما لم يسبق له طبع (١١)...، ولم أكتف بذلك، بل جعلت على نفسى دروسًا كنت ألقيها على التلاميذ كالطبيعة والعمارة، والفت فى العمارة كتابا بقى متبعًا فى التعليم بالمدارس، وإن لم يُطبع" (١٢).

ولم يقتصر جهد "على مبارك" على العاصمة والإسكندرية وحسب، وإنما كان دأبه، هو "انتهاز فرصة تعليم أبناء الوطن وبث فوائد العلوم" (١٣)، فأخذ فى إنشاء "مدارس مركزية فى بعض مدن

القطر كأسيوط والمنيا وبنى سويف وبنها، ورتبت بها أدوات التعليم فرغب الناس فى تعليم أولادهم بها، وكثرت فيها الأطفال... حتى خرج من التلامذة الذين تربوا بالمدارس فى مدننا جمٌّ غفير، توظفوا بالوظائف الميرية (الحكومية) الشريفة، ملكية (مدنية) وحربية، وانتفعوا وانتُفع بهم" (١٤).

وفضلاً عن ذلك فقد أنشأ "على مبارك" "دار الكتب المصرية"، لكى يكون فى مصر "دار كتب جامعة عامة يرجع إليها المعلمون للاستعانة على التعليم كما فى مدارس البلاد الأجنبية" (١٥).

كما أسس مجلة "روضة المدارس"، وألف العديد من الكتب، من أبرزها كتابه الضخم "الخطط التوفيقية"، ولم يتردد فى اتخاذ كل الإجراءات التى تفيد فى ترقية التعليم، وتكوين قاعدة واسعة من الطلاب، ساهمت بدور كبير، بعد اكتمال نضجها، فى بناء مصر الحديثة، ووضع أسس نهضتها المعاصرة، حتى استحق عن جدارة لقب "أبو التعليم المصرى" الحديث دون منازع.

(٣)
الثورة العُرابية: "لقد خلقنا الله أحراراً "!

كان من نتائج انتشار التعليم وتطور دور المصريين فى قيادة الجيش المصرى، أن ازداد شعور المصريين فى الجيش بهويتهم الوطنية، فى مواجهة الهيمنة الغربية، والاستعلاء الأجنبى، وخاصة من "إسماعيل رفقى"، وزير الحربية فى وزارة "رياض باشا"، الذى تعامل بعجرفة واستبداد واحتقار مع الضباط والجنود المصريين.

انفجرت "الثورة العُرابية"، التى قادها الزعيم "أحمد عرابى"، وقد رفعت شعارات الحرية والعدالة، وطالبت بحقوق المصريين، جنوداً وضباطًا، فى جيش بلادهم، معبِّرة عن تبلور الشخصية الوطنية المصرية تحت شعار: "مصر للمصريين"، وقد طرحت الثورة العرابية مطالبها على الخديوى "توفيق" فى مظاهرة ساحة قصر عابدين، عصر يوم الجمعة ٩ سبتمبر ١٨٨١:

الخديوى: ماهى أسباب حضورك بالجيش إلى هنا ؟.

عرابـــى: جئنا يامولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة.

الخديوى: وما هى هذه الطلبات ؟.

عرابـــى: هى إسقاط الوزارة المستبدة، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوربى، وإبلاغ الجيش إلى العدد المُعَيّن فى الفرمانات السلطانية، والتصديق على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها.

الخديوى: كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها، وأنا ورثت مُلك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا !.

عرابـــى: لقد خلقنا الله أحراراً، ولم يخلقنا تراثًا وعقاراً، فوالله الذى لا إله إلا هو، إننا لن نورث أو نُستعبد بعد اليوم !".

وقد تحالف "الخديوى توفيق" مع ممثلى النفوذ البريطانى والغربى لإجهاض الثورة، وكان لموقف السلطان العثمانى الذى أدان "عصيان عرابى" أثره الخطير فى حصار الجيش الثائر، ودمرت مدافع الأسطول البريطانى بقيادة الجنرال "سيمور" مدينة الإسكندرية، وتم احتلالها، وقاوم العرابيون قوىً أكبر منهم عدداً وأفضل تجهيزاً وعدة، ولعبت الخيانة دورها فى هزيمة الثورة واحتلال مصر، بعد أن سقطت القاهرة تحت الأحذية العسكرية البريطانية فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢.

وتجدر الإشارة هنا إلى الدور الكبير الذى لعبه المثقفون الثوريون فى التمهيد للثورة، وفى إشعال لهيبها، وفى المقدمة منهم يقف "عبد الله النديم"، الذى ساهم بكتاباته، وأشعاره

وخطبه الثائرة، فى إذكاء روح الثورة والوطنية فى نفوس المصريين، وقد مثَّلَ صورة المشقف الثورى، العضوى، المهموم بقضايا أمته أفضل تمثيل، ولذا فقد حماه الشعب، وأخفاه عن غائلة السلطة، التى كانت تطلب رأسه بأى ثمن على امتداد سنوات طويلة، وأفسح له مكانًا خالدًا فى الوجدان الوطنى، تعبيراً عن التقدير والتبجيل والاحترام.

(٤)

مصطفى كامل: بلادى بلادى .. لك حبّى وفؤادى

لكن انكسار الثورة العرابية لم يكن نهاية المطاف، وكما قال شاعرنا الكبير "زين العابدين فؤاد": "لما انكسر عرابى من على ضهر الحصان... لا انهد حيل الخيل ولا قلّت الفرسان"، فقد بدأت مصر "الولّادة" فى استعواض خسائرها، واستبدال فرسها المتعب بآخر أكثر شبابًا، وهذه المرّة كان فارسها الفتى الذهبى "مصطفى كامل".

كانت مهمة "مصطفى كامل" الأولى هى بعث الروح الوطنية فى النفوس المعذبة التى أثقلت عليها ضوارى الاحتلال، ونشرت فى ربوع الوطن مشاعر اليأس والخيبة والإحباط، ولذلك استخدم لغة شاعرية عاطفية فخيمة، هدفها الأساسى استعادة المصرى روح الثقة فى النفس، الموصولة بحس الفخر لانتمائه إلى ماضٍ مجيد،

وانتسابه إلى حضارة تليدة، لا مثيل لها، تركت بصماتها العميقة على مسار البشرية ولازالت علاماتها حيّة وشواهدها باقية.

"بلادى بلادى .. لك حبى وفؤادى. لك حياتى ووجودى. لك دمى ونفسى. لك عقلى ولسانى. فأنت أنت الحياة، ولا حياة إلا بك يا مصر!.

يقول الجهلاء والفقراء فى الإدراك إنى متهورٌ فى حبها، وهل يستطيع مصرى ألا يتهور فى حب مصر؟!. إنه مهما أحبها لا يبلغ الدرجة التى يدعو إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها!.

ألا يا أيها اللائمون انظروها وتأملوها وطوّفوها وتأملوا صحف ماضيها، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض: هل خلق الله وطنًا أعلى مقامًا وأسمى شأنًا وأجمل طبيعة وأجلّ آثارًا وأغنى تربة وأصفى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز؟.

إسألوا العالم كله يجيبكم بصوت واحد: إن مصر جنة الدنيا، وأن شعبًا يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزّها، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح فى حقها وسلّم أزِمّتها للأجنبى!.

إنى لو لم أولد مصريًا ... لوددتُ أن أكونَ مصريًا!"(١٦).

وقد لجأ مصطفى كامل، فى سبيل إنجاز غايته بتحقيق استقلال مصر، وإزالة الاحتلال البريطانى، إلى محاولة اللعب على

التناقضات داخل المعسكر الاستعمارى، وخاصة بين إنجلترا وفرنسا وبينهما وبين تركيا، وتجاهل التناقضات الاجتماعية، والصراعات الطبقية والقومية فى المجتمع لحساب الجامع الوطنى الخالص، فتحالف مع "الخديوى عباس الثانى"، كما كان موقفه من الزعيم "أحمد عرابى" والثورة التى قادها بالغ العنف والضراوة، إذ حمّلهما مسئولية سقوط مصر بين مخالب الاحتلال الإنجليزى، ولم يقبل أى عذر أو تبرير، أو حتى تفسير يُبَرِّأ ساحتهما، أو يحاول أن ينصفهما!.

بدأ "مصطفى كامل" جهاده لإيقاظ الوعى الوطنى منذ سنوات التلمذة، وهو طالب بالمدرسة الثانوية، يكتب المقالات، ويرتجل الخطب الحماسية، وفى مدرسة الحقوق التى التحق بها عام ١٨٩١ فى سن السابعة عشرة من عمره، اتصل برجالات الفكر والوطنية والسياسة والقانون، ثم درس بمدرسة الحقوق الفرنسية، وشارك فى التظاهرات الوطنية ضد الحكم البريطانى واللورد "كرومر"، المعتمد البريطانى فى مصر من عام ١٨٨٣ وحتى عام ١٩٠٧، الذى ظل لما يقرب من ربع القرن الحاكم الفعلى والملك غير المتوّج للبلاد (١٧).

أنشأ "مصطفى كامل" مجلة "المدرسة" وصدر عددها الأول فى فبراير ١٨٩٣، وبث من خلال صفحاتها روح العزيمة والإقدام، وكانت أول مجلة مدرسية يصدرها طالب.

وسعى من خلال جهوده إلى استنهاض "قوة الرأى العام" وتعبئتها فى مواجهة الاحتلال، وتنقل بين العديد من دول العالم للدعاية

لـ"المسألة المصرية" واستغل جرائم الإنجليز، كواقعة "دنشواى" المأساوية، وما تمخض عنها من قتل وترويع، فى التشهير بالاحتلال ومآسيه، داخليًا وخارجيًا، كما أنشأ المدارس لتعليم الأجيال الجديدة معنى العلم والوطنية، وأصدرجريدة "اللواء"باللغة العربية، و"ذا إجيبشيان استاندرد" بالإنجليزية، فضلاً عن "ليتندار إجبسيان" باللغة الفرنسية، لمخاطبة العرب والأجانب، كما جاب البلاد للخطابة، من أجل حثّ المصريين على التماسك فى مواجهة الاحتلال !.

وقد أنهك الجهد المضنى جسد الزعيم العليل، الذى توهج فى سماء الوطنية كبرق لامع، ولم يستمر كفاحه إلا لأقل من عقدين من السنين، قبل أن تواتيه المنيّة، فخرج المصريون، من مختلف الأعمار، يودعونه إلى مقره الأخير، يوم ١١ فبراير ١٩٠٨، وكتب "قاسم أمين" يصف جنازته المهيبة "١١ فبراير ١٩٠٨، يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل، لهو المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق، المرة الأولى يوم تنفيذ حكم دنشواى، أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب "اللواء" فقد ظهر ذلك الشعور ساطعًا فى قوة جماله، وانفجرت فرقعة هائلة سُمع دويها فى العاصمة، ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر. هذا الإحساس الجديد، هذا المولود الجديد الذى خرج من أحشاء الأمة، من دمها وأعصابها، هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة، هو الشعاع الذى تسيل حرارته إلى قلوبنا الجائعة الباردة، هو المستقبل"(١٨).

(٥)

محمد فريد: خادم مصر المخلص!

خَلَفَ "مصطفى كامل" فى زعامة "الحزب الوطنى"، والنضال الشعبى، والحركة السياسية المصرية، واحد من أبرز وأهم الشخصيات الوطنية فى تاريخ مصر الحديث. إنه الزعيم "محمد فريد"، (٢٠ يناير ١٨٦٨ - ١٨ نوفمبر ١٩١٩)، الذى ضرب المثل فى البذل والتضحية من أجل القضية، وفى احتمال الغربة والحاجة والأذى، فى سبيل نصرة الوطن، والدفاع عن مصالح الشعب والأمة.

وُلد محمد فريد لأبوين موسرين، وكان والده قيّمًا على "نظارة الدائرة السنيّة"، أى إدارة الممتلكات والشئون الملكية، ومع هذا اجتهد فى طلب العلم، ونال شهادة الحقوق عام ١٨٨٧، وانفتحت أمامه أبواب الترقّى لأعلى المراكز فى الدولة، والصعود الاجتماعى

لأسمى مراتبها، لكنه ترك كل ذلك، وأدار ظهره لكل الطموحات (البرجوازية) الشخصية، وتفرّغَ للجهاد الوطنى، رفيقًا لـ"مصطفى كامل"، وعضداً له بالموقف والمال، حتى رحيل "الزعيم"، فتقلد موقع رئيس الحزب، وقائد مسيرته ومسيرة الشعب، فى فترة مليئة بالأزمات والاضطراب.

لم يُدرك "مصطفى كامل"، الذى حظى بشخصية "كاريزمية" متفردة، أهمية "تنظيم" القوى الشعبية إلاّ فى أخريات عمره، فقد اعتمد على استثارة الفكر والشعور الوطنيين، وتحريك مكامن العاطفة والوجدان، لدى جموع شعب مصر، فلم يعن بتشكيل "حزب منظم" إلا قبل وفاته بشهرين، حيث أعلن عن تكوين "الحزب الوطنى" فى ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧، ورحل عن دنيانا فى فبراير ١٩٠٨.

وحين آلت القيادة إلى "الرجل الفذ"، "محمد فريد"، كما يصفه "أمين عز الدين" (١٩)، نقل الكفاح الوطنى نقلة كيفية بالغة الأهمية، إذ منذ توليه قيادة الحزب فى ١٤ فبراير ١٩٠٨ "بدأنا نلاحظ تحولاً عميقًا وخطيراً فى حياة الحزب.. تحولاً يكشف عن اتجاهين أساسيين: أولهما: اتجاه نحو الطبقة العاملة والصنّاع الحرفيين، للدفاع عنهم والمطالبة بحقوقهم.

وثانيهما: اتجاه نحو "التنظيم"، أى تنظيم الحزب وتنظيم قواعده الشعبة" (٢٠).

وبدأ "فريد" فى ممارسة الكتابة فى الصحف، مُنتقداً سياسات الحكومة نحو العمال، وإغفالها إصدار التشريعات الواجبة

لحمايات، وتبنى مع الحزب تحركاتهم الاحتجاجية وإضراباتهم واعتصاماتهم دفاعًا عن مطالبهم، وندد بالاحتكارات الأجنبية واستغلالها للعمال المصريين، وشارك فى مؤتمرات فى الداخل والخارج انتصاراً لقضاياهم، والتقى قيادات عمالية وثورية، للدعوة للقضية.

لكن الخطوة الكبرى فى مسيرة "الحزب الوطنى" وحركة شعب مصر آنذاك، كان اتجاه "فريد" إلى إنشاء النقابات الفلاحية والعمالية، (كنقابة الصنائع اليدوية)، التى اعتُبرت "أكبر تجمّع عمالى فى مصر طوال الفترة السابقة على الحرب العالمية الأولى" (٢١).

كذلك أنشأ "الحزب الوطنى" فى عهد "محمد فريد" التعاونيات الشعبية، و"مدارس الشعب" لتثقيف الصُنّاع، وعموم أبناء الوطن، وتهيئتهم لدورهم المهم فى النضال الاجتماعى والوطنى، ومن أجل - حسب تعبير "فريد" - "تعليمهم حقوقهم وواجباتهم، وتفهيمهم أهمية النقابات وشركات التعاون" (٢٢).

لكن الهدف المهم الكامن خلف هذا التوجّه كان "نشر مبادئ الوطنية والثورة بين الطبقات الدُنيا، حيث كان يُدّرسُ بها النظريات الثورية وكراهية الاحتلال ا" (٢٣).

وفضلاً عن ذلك، فقد نشط الحزب بقيادة "فريد" وسط المدارس وتجمعات الطلاب والمثقفين، فى الداخل والخارج، وأنشأ "نادى المدارس العليا للطلبة وخريجيهم"، والتقى مبعوثيهم فى الخارج

لتنظيم صفوفهم وتنشيط تحركاتهم، وبث روح الوطنية والنضال بينهم.

ويؤكد "آرثر إدوارد جولد شميت الابن"، أنه "في سنة ١٩٠٨ كانت جمعيات الطلاب الكبيرة في كل من لندن وباريس وليون تنظيمات تابعة للحزب الوطني في حقيقتها" (٢٤).

ولكل هذا الجهد، وما شكّله من خطورة وتهديد على الاحتلال ووجوده، فلقد لقي "محمد فريد" وحزبه عنتًا واضطهادًا كبيرين من الاحتلال البريطاني، وفي عام١٩١٢ اضطر "فريد" إلى مغادرة البلاد باتجاه المنفى، بعد أن قررت سلطات الاحتلال إغلاق الحزب وهيئاته، وحل نقاباته ومدارسه، ومطاردة كوادره وقياداته.

وفي يوم ١٨نوفمبر ١٩١٩، وفي غمرة وقائع الثورة الوطنية الكبرى، التي جاهد من أجلها، وأفنى زهرة حياته تحضيرًا لها، رحل "الرجل الفذ"، النبيل، "محمد فريد"، منفيًا بمدينة برلين الألمانية.

وقبل وفاته ببضعة أسابيع، ومن على فراش المرض، وبيد واهنة، كتب وصية وداعه لبني أمته:

" إن صوت هذا الضعيف لم يخفت يومًا واحدًا، ولم يتأخر عن القيام بما تفرضه عليه الوطنية طرفة عين.. بل كان يزداد قوةً ونشاطًا كلما تراكمت أمامه الموانع وتكدست العقبات.

... إياكم أن تنسوا عِبَرَ التاريخ.. وليكن دائمًا أمام أعينكم، فمنه تعلمون الحقيقة، ولتنظروا خاتمة الأعمال لإصدار حكمكم عليها.

وسلام عليك أيها الوطن المُفدّى
سلام على النيل ووادیه
سلام على الأهرام وبانيه
سلام على خُدّام مصر المخلصين
سلام على شهداء الحرية !" (٢٥) .

... و... رحل "محمد فريد" : وحيداً ، فقيراً ، مريضًا ، منزوعًا من كل شيء... إلاّ العزّة والكرامة والوطنية ، والخلود فى وجدان شعب مصر..

وما أعظمه من رحيل !.

(٦)
مصر ١٩١٩: الاستقلال التام أو الموت الزؤام!

أثمرت هذه البذور، وطرحت ثمارها مع أوائل القرن الماضى (القرن العشرين)، حيث لعب الطلاب المصريون دورًا أساسيًا فى حمل أمانة العمل الوطنى، وبالذات مع تباشير الثورة الوطنية الكبرى عام ١٩١٩.

كانت مصر، مع تصاعد ونيرة النضال فى مواجهة قهر الاحتلال واستنزافه ثروات الوطن، قد أصبحت مهيئة للانفجار والثورة طلبًا للحرية.

ولذلك، فبمجرد أن اعتقلت قوات الاحتلال البريطانى "سعد زغلول" وصحبه، حينما أصروا على التوجه إلى باريس لعرض مطالب مصر المشروعة فى الحرية والاستقلال على المؤتمر الدولى الذى كان سينعقد بها، لم تمض بضع ساعات حتى انطلق الطلاب

بمظاهرتهم الأولى فى اليوم التالى، ٩ مارس١٩١٩، يهتفون لحياة مصر وسقوط "الحماية"، (أى بسط الاحتلال البريطانى لهيمنته على البلاد!)، ويفتحون المدارس لإخراج طلابها وتحريضهم على الاشتراك فى المظاهرات والإضراب احتجاجًا على نفى سعد ورفاقه (٢٦)، كان طلاب مدرسة الحقوق المضربون قد خرجوا فى مظاهرة حاشدة باتجاه مدرسة " المهندسخانة " ثم ساروا جميعًا يهتفون بحياة مصر وحياة سعد، وتوجه الجميع لإخراج زملائهم طلاب مدرسة التجارة العليا بالمبتديان، وفى اليوم التالى انضم لهم جميع طلاب المدارس والأزهر " (٢٧).

واستمرت مظاهرات الطلاب وسقط المئات من بين صفوفهم شهداء وجرحى برصاص جنود الاحتلال، أولهم كان ستة شهداء وواحدًا وثلاثين مصابًا، منهم ٢٢ بنيران البنادق، وبعدها سقط الشهيد محمد عزت بيومى، يوم ١١ مارس فى مصادمات الطلبة مع الجنود البريطانيين قرب كوبرى شبرا، وانفجر طوفان الغضب الشعبى العنيف، وبدأت الجماهير فى المواجهة الفعلية للوجود البريطانى على أرض الوطن، فهاجموا قطارات التموين والجنود، وحطموا السكك الحديدية، ودمروا المحطات، الأمر الذى أزعج قيادات الاحتلال البريطانى تمامًا، وجعلهم يصدرون قرارًا إرهابيًا بالغ الوحشية ينص على أن كل حادث جديد من حوادث تدمير محطات وتجهيزات السكك العسكرية أو المهمات العسكرية يُعاقب عليه بإحراق القرية التى هى أقرب من غيرها إلى مكان التدمير، وهو آخر إنذار (٢٨).

(٧)
الحركة الطلابية فى الثلاثينات

وفى مواجهة إرهاب الاحتلال المدجج بالسلاح صمد الشباب المصرى، ونوع أشكال المواجهة مع العدو الإنجليزى، ولم تنقطع حركات المقاومة الثورية طوال أعوام ١٩١٩، ١٩٢٠، ١٩٢١، ولا توقف سيل الشهداء من شباب مصر، طلابًا وعمالاً، فلاحين وموظفين.

وفى محاولة لامتصاص غضبة الشعب المصرى، أعلن الاحتلال تصريح ٢٨ فبراير، الذى سارعت الجماهير الثائرة برفضه لما تضمنه من التحفظات الأربعة (٢٩) الشهيرة، كما صدر دستور١٩٢٣ الذى لم يمس سلطات الملك، فرد عليه الشعب بتصعيد جديد لمظاهراته وإضراباته واعتصاماته، ونشطت جمعيات وطنية سرية عديدة، تكونت من الشباب المصرى الفائر الحماس

لاغتيال قادة وجنود الاحتلال، نجحت فى تنفيذ عمليات عديدة مؤثرة (مثل اغتيال السير لى ستاك - سردار الجيش المصرى، وحاكم السودان) وعمت الفوضى البلاد فحُكمت بوزارات الأقليات القمعية (وزارة محمد محمود ١٩٢٨، وزارة إسماعيل صدقى ١٩٣٠)، وعُطّل الدستور والحياة النيابية، وعاشت البلاد فترة اتسمت بالقلق وانعدام التوازن، حتى أعلن السير صمويل هور، يوم ٩ نوفمبر ١٩٣٥، تصريحاته التى تشير برفض عودة دستور ١٩٢٣، أو دستور ١٩٣٠، الأمر الذى اعتبرته الجماهير تدخلاً سافراً فى شئون البلاد، وتسويفًا مخادعًا للوعود المتكررة بالاستقلال والسيادة.

(٨)
ثورة شباب ١٩٣٥

وعلى أثر تصريحات "صمويل هور" انفجرت الثورة المرتقبة من الجامعة، في مناسبة الاحتفال بذكرى عيد الجهاد الوطني (١٣ نوفمبر ١٩٣٥)، وأضربت المدارس والكليات وألقيت الكلمات الحماسية التي تندد بالسياسة الاستعمارية، وخرجت المظاهرات تهتف: "نحن فداؤك يا مصر، فليسقط الاستعمار، فليسقط تصريح هور"، وعند ميدان الإسماعيلية (التحرير) أطلقت القوات البريطانية النار على المظاهرات الطلابية المتجهة إلى "بيت الأمة"، وعند قصر عابدين حدث صدام عنيف بين المتظاهرين وقوات الأمن، وفي العباسية تكرر الوضع واندلعت شرارة الثورة إلى الأقاليم، حيث سقط عشرات الجرحى والشهداء.

وفي اليوم التالي (الخميس ١٤ نوفمبر ١٩٣٥) اتخذت قوات البوليس، منذ الصباح الباكر، استعداداتها حول الجامعة ترقباً

للأحداث، ومن كلية الحقوق بدأت الدعوة للإضراب، للمطالبة بالدستور واستقالة الوزارة، وانضم إلى طلابها طلاب الهندسة والآداب والزراعة والسعيدية ثم طلاب التجارة المتوسطة بالجيزة، واتجه الجمع الحاشد، الثائر، إلى كوبرى عباس، وعند اجتيازهم الكوبرى انطلقت رصاصات الغدر من القوة الإنجليزية التى كانت تحاصره، فأصيب محمد عبد المجيد مرسى الطالب بكلية الزراعة إصابة قاتلة استشهد على أثرها، وأصيب محمد عبد الحكم الجراحى، الطالب بكلية الآداب، الذى كان يتقدم المظاهرة حاملاً علم مصر بثلاث رصاصات فى بطنه، كما جرح غيرهما، منهم إبراهيم شكرى، طالب كلية الزراعة آنذاك، وآخرون .

استشهاد البطل الجراحى :

وقد كتب محمد عبد الحكم الجراحى، ابن العشرين البطل، رسالة إلى "مستر بلدوين" رئيس الوزراء البريطانية، قبل استشهاده، يقول فيها :

"إلى بريطانيا، روح الشر، أحد مواطنيك رمانى بالرصاص، وأنا الآن فى طريقى للموت، لكنى سعيد لأنى أضحى بدمى . . وأن الموت أمر هين، وآلامه عذبه ما دامت من أجل مصر.

لتحيي مصر . . ولتسقط إنجلترا، وسيتولى الله فى القريب عقابكم أنتم وإنجلترا روح الشر، فلتحيا التضحية (٦) .

وقد ظل الجراحى يصارع الموت خمسة أيام متواصلة حتى لفظ أنفاسه، وكان لاستشهاده وقع مؤثر على الجماهير التى لم تنقطع

ثورتها داخل القاهرة وفى الأقاليم، وكانت جنازته (الثلاثاء ١٩ نوفمبر ١٩٣٥) من الأيام المعدودة فى تاريخ مصر التى خفق فيها قلب الوطن (٣٠)، فخرج الشعب لوداعه فى موكب مهيب، وظل الطلبة لا يفارقون المكان (مستشفى القصر العينى)، خوفًا من أن تُهَرَّبَ الحكومة جثته، كما فعلت مع الشهيد محمد عبد المجيد مرسى، الذى أرسلت جثته فى الخفاء إلى الإسكندرية (٣١).

وفى أعقاب هذه الأحداث الدامية قررت فئات الشعب المختلفة الإضراب العام، واستجاب لهذه الدعوة الصحفيون والمحامون، والتجار والطلاب وغيرهم، كما برز دور الطالبات واضحًا فى أحداث هذه الثورة: خطيبات، وممرضات ومتظاهرات وداعمات، كذلك دور أعضاء هيئات التدريس بالجامعات المصرية، وتداعت الأحزاب للائتلاف تحت ضغط الظرف العام، لكن الحوار بينهم لم يؤد لنتيجة تذكر، واستمرت فرقتهم فى الوقت الذى كان الوطن فيه بحاجة ماسة للاتحاد خلف رايته، وكما عبرت بدقة مجلة روز اليوسف: "إنما نحن نعرف أن بيزنطة تحترق وأن أهلها يتجادلون ويتراشقون، خير لبيزنطة وأهلها أن يفيقوا ويتعاونوا على إطفاء الحريق الذى سيكونون هم أول وقود له إذ تركوه يمتد ويأتى على الأخضر واليابس معا" (٣٢).

(٩)
حركة الشباب الوطنية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية

كانت خيبة أمل الشباب فى عجز قيادات الحياة الحزبية عن تجاوز المطامح والمطامع الخاصة وللالتقاء حول الأهداف الوطنية السامية، واتضاح نية إنجلترا لاستمرار تطبيقها لمعاهدة ١٩٣٦، مبعثاً لتجدد أعمال الثورة في البلاد، فى مواجهة ديكتاتورية "إسماعيل صدقى"، الذى واجه مظاهرات الشباب بالعنف، فسقط مجدداً الشهيد تلو الشهيد، وتصاعدت نقمة الشعب على الاستعمار وأذنابه.

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية، كان عود الحركة العمالية قد اشتد، وبدأت الحركة الطلابية تتطلع حولها بحثًا عن حليف استراتيجى يمكن التعاون معه فى خوض معركة التحرير، بدلاً من القيادات الحزبية التقليدية المتهافتة، ومن هنا كان الالتقاء الكبير، الذى تم فى ٢١ فبراير ١٩٤٦ بالطبقة العاملة المصرية، تتويجاً

لكفاح أصلب الطبقات الوطنية عوداً، فى لقائها بالعناصر المثقفة والواعية من الطلاب.

كان تصاعد النضال الطلابى قد تبلور فى تكوين "اللجنة الوطنية للطلاب"، التى أصدرت ميثاق ١٧ فبراير لكى يحدد أهم أهداف نضالها فى :

- الجلاء التام براً وبحراً وجواً، عن كل شبر من أرض وادى النيل.
- دولية القضية المصرية.
- التحرر من العبودية الاقتصادية.

وبعد إعلان الطلبة ميثاقهم عقدت اجتماعات بين العمال والطلبة، واتفق مندوبوهم على أن قوة الحركة الوطنية وصلابتها إنما تُستمد من الابتعاد عن الأحزاب الفاسدة، وعن أنانيتها وتهاونها مع المستعمر والسراى، وعن طريق تحقيق وحدة فئات الشعب تحت قيادة جديدة.

وفى ١٨ و ١٩ فبراير أعلن تكوين "اللجنة الوطنية للعمال والطلبة"، إعلاناً بميلاد قيادة جديدة للحركة الوطنية.

وقد قررت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة اعتبار يوم الخميس ٢١ فبراير ١٩٤٦، "يوم الجلاء"، "يوم إضراب عام لجميع هيئات الشعب وطوائفه، يوم استئناف للحركة الوطنية المقدسة التى تشترك فيها عناصر الشعب المصرى متكتلة حول حقها فى الاستقلال التام والحرية الشاملة، يوم إشعار المستعمر البريطانى

والعالم الخارجى أجمع أن الشعب المصرى قد أعد عدته للكفاح الإيجابى، حتى ينجلى كابوس الاستعمار الذى ظل جاثمًا على صدورنا منذ ٦٤ عامًا" (٣٣).

وقد استجاب الشعب المصرى، بمختلف طبقاته وفئاته فى العاصمة وشتى أنحاء البلاد، استجابة رائعة لنداء اللجنة، فى يوم تاريخى مشهود، وانطلقت المظاهرات فى شوارع مصر تهاجم ثكنات الاحتلال، وسقط ٢٣ شهيداً من العمال والطلاب المصريين برصاصات المحتل وأعوانه، كما أصيب العشرات من المتظاهرين.

يوم الحداد - يوم الثأر للشهداء:

كان الرد على وحشية المحتل وتخاذل حكومة صدقى (التى وصفت المتظاهرين بـ"الدهماء"!) (٣٤) قرار اللجنة الوطنية بإعلان يوم ٤ مارس، يومًا للحداد العام على شهداء الانتفاضة الشعبية، ورغم الضغوط التى تعرضت لها اللجنة من السلطة وأعوانها، نفذت إرادة الجماهير، وأعلن الحداد العام الذى شمل المتاجر والمقاهى والمحال والمدارس والمصانع، وبإجماع أذهل المراقبين والسلطات، وقد انتهى هذا اليوم بسقوط ٢٨ شهيداً وجرح ٣٤٢ مواطنًا، وقد قام العمال والطلبة السودانيون فى الخرطوم وأم درمان، بمظاهرات قوية فى ١٣ مارس ١٩٤٦ مشاركة لشعب مصر فى كفاحه ضد الاستعمار، "لقد تحرك الشعب المصرى، وتحرك الشعب السودانى تحت قيادة من نوع جديد" (٣٥).

وقد مثلت هذه القيادة الشابة نقلة نوعية جديدة تجاوزت القيادات التقليدية المرتبطة بالاستعمار والقصر، وكان يمكن أن تدفع البلاد كلها باتجاه متطور يُقرِّب من ساعة التحرير،" لولا الضربات العنيفة التى وجُهت لها، ولولا ما شاب حركتها من انقسام، ولولا عجزها عن زرع جذورها القوية فى كل موقع من مواقع النضال، فاستمرت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة لجنة علوية ليس لها لجان فى كل مصنع وشارع وحى وفى كل كلية ومدرسة " (٣٦).

٢١ فبراير عيداً لطلاب العالم :

لقد اتخذ شباب وطلاب العالم، يوم ٢١ فبراير، من كل عام عيداً يحتفلون فيه - على امتداد العالم أجمع - بذكرى شهداء طلاب مصر، وتمجيداً لبطولات شبابها وشباب الهند المنتفض فى مواجهة المحتل البريطانى أيضا، فى وقت كانت فيه مصر لا زالت تبحث عن نفسها، وشبابها الثائر يحفر درب الحرية بأظفاره، ويُعبِّدْ طريق الثورة بدمه الطاهر، وقد بدا للجميع أن أشكال النضال السلمية، من إضرابات وتظاهرات واعتصامات ومسيرات وعرائض ومنشورات . . إلخ، قد استُنفدت من دون طائل، ولم يعد هناك من سبيل إلا بإحداث تطور كيفى فى أساليب الصراع، هذا التطور تجسد فى بدء شن الكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال ورموزه الجاثمة على صدور الوطن.

الشباب والكفاح المسلح :

كانت الحرب العالمية الثانية قد انتهت، وهبت الشعوب على امتداد العالم أجمع، تسعى لخلاصها من قيود الاستعمار، وظهرت إلى الوجود أول دولة اشتراكية فى الاتحاد السوفيتى، وانتصرت الثورة الاشتراكية فى الصين، وبدا واضحًا أن كفاح الشعوب الصلب وقتالها الضارى ضد محتليها يخلق ظروفًا أكثر ملاءمة للتحرير، وأن أسلوب المساومات والمفاوضات لا يؤدى إلاّ إلى فقدان الطريق الصحيح، وبدأت الأعمال الفدائية تقلق راحة المستعمرعلى ضفاف القناة، والتهبت روح البذل والتضحية بكل غال فى سبيل الوطن، وأعلن العمال المصريون الانسحاب من المعسكرات البريطانية، مما أربك خدماتها، وشل قدراتها . . كان الوضع ينذر بأن.فجراً جديداً يوشك أن يطلع يشرق بالضياء يغمر أرض الوطن، وصراع الإرادات بين الشعب وغاصبى حقوقه يصل إلى ذروة غير مسبوقة، وأحاديث الخيانة والأسلحة الفاسدة تفوح فى كل مكان، مشيرة بأيدى الإتهام إلى الرؤوس الكبيرة: إلى الملك وأعوانه . . محرضة الشعب على الثورة، وحافزة على تغيير الأوضاع .

(١٠)
ميلاد جديد للحركة الطلابية

وكانت هذه الظروف جميعها هى التى هيأت لوقائع يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، حيث حسم الجيش الأمر لصالحه ، إزاء تدهور الأوضاع وعجز القوى السياسية وغياب البدائل المدنية القادرة ، وفى خضم صراع السلطة الجديدة ضد خصومها وأعدائها ، ولتثبيت مواقع أقدامها فى الواقع المضطرب ، لجأت إلى إحكام السيطرة على كل هيئات المجتمع الحية ، وعلى رأسها العمال والطلاب فمدت نفوذها إلى النقابات العمالية ، واهتمت اهتمامًا كبيرًا بالطلاب والشباب ، باعتبارهما ركيزة أساسية من ركائز النظام الجديد ، وطوال عقد ونصف العقد تقريبًا ، أمم " النظام الجديد الحركة الطلابية تأميمًا تامًا ، واعتبرها قوة المستقبل التى ينبغى الرهان عليها ، ووجد الطلاب فى الثورة وزعيمها الكاريزمى جمال عبد الناصر تحقيقًا

لآمال الأجيال فى الإنجاز الوطنى والقومى، واستمر هذا التمازج العميق حتى صحا الجميع على زلزال ٥ يونيو ١٩٦٧، الذى كان إيذانًا بشرخ عميق فى العلاقة بين الطرفين، انتهى بانفصال القاعدة الطلابية عن النظام، وعودتها - مجددًا - إلى صفوف المعارضة الوطنية والديمقراطية.

رجعوا التلامذة.. ياعم حمزة!:

من رحم هزيمة ١٩٦٧ وُلدت الحركة الطلابية الجديدة فى السبعينيات. من انهيار المُثل، وخيبات الأمل، واكتشاف حجم المأساة والإحساس العميق بوطأة الاحتلال، ومن مهانة الوضع القائم فى مواجهة الرايات الصهيونية المختالة التى كانت ترفرف فوق التراب الوطنى المقدس، انفجرت صواعق الغضب الطلابى فى موجتين متتابعتين، كانتا مقدمة للانفجار الكبير:

أولاهما: فى فبراير ١٩٦٨ (٣٧)، احتجاجًا على الأساليب التى قادت للهزيمة وتجسدت فى النتائج الهزيلة لمحاكمة قادة الطيران.

فقد كان الشعور العام أن النظام بدلاً من أن يقوم بمراجعة شاملة وعميقة ونقدية صارمة للأسباب الموضوعية للهزيمة، اكتفى - كعادته إلى اليوم - بتقديم كبش فداء صورى حُمِّل أوزار الوضع برمّته، وغطى هذا الأمر بالتالى على الحقائق الأساسية للكارثة، وأبقى على عناصر الخلل التى قادت للهزيمة.

وفى ذكرى اليوم العالمى للطلاب، من جامعتى القاهرة وعين شمس، ومن حلوان حيث القاعدة العمالية الكبيرة، تم لأول مرة فى

تاريخ مصر الحديث - منذ يوليو ١٩٥٢ - الخروج على سطوة أجهزة النظام، ومحاولة التحرر من قبضتها .

كانت تفاعلات يونيو ١٩٦٧ تغلى تحت السطح الهادئ، ففى أعقاب صدمة الهزيمة تماسكت جماهير الشعب فى مواجهة الخطر الرابض على مرمى حجر من القاهرة، كان سلوكها المثالى وانتظامها الفورى فى الصفوف المقاومة للاحتلال، مرجعه الأساسى إدراكها الغريزى، والواعى، لمغزى العدوان ومستهدفاته، وإرادة التحدى الكامنة فى أعماقها، والتى دفعتها لعدم تمكينه من تحقيق أهدافه، كانت هناك نقمة عارمة على الأوضاع التى قادت إلى حرب ذبح فيها جيشنا من دون أن يعطى فرصة حقيقية للقتال، يثبت فيها قدراته، ويؤكد فيها إمكاناته الفعلية، فالإهمال الجسيم، والانهيار المخزى للقيادات، عكسا بوضوح تفسخ الطبقة الحاكمة، وعجزها عن تجسيد الشعارات المطروحة التى تم تفريغها من مضمونها بواسطة جهاز غير ديمقراطى، بيروقراطى، سرطانى التمدد، امتص عائد المجتمع وبدد ناتج تضحياته .

والثانية : فى نوفمبر من نفس العام ١٩٦٨ وهذه المرة جاءت من خارج القاهرة، العاصمة لتعلن أن شرارة الغضب الكامن بدأت فى الامتداد إلى أنحاء الوطن كله .

فمن المنصورة يبدأ الصدام احتجاجًا على صدور القانون الجديد للتعليم العام، وتفجر الموقف بإطلاق الرصاص على مظاهرات الطلاب السلمية، ثم يمتد اللهيب إلى الإسكندرية العاصمة الثانية

للبلاد، التى يرتفع مستوى الصدام فيها بين الأجهزة الأمنية والطلاب إلى حد غير مسبوق، يعلن بوضوح أن الفراق التام بين النظام والجماهير الطلابية قد وقع، ورغم كل محاولات تشويه التحركات الطلابية التى استغلت فيها أجهزة الإعلام كل قدراتها لتشويه الوقائع، فالواقع أن جزءاً كبيراً من هيبة النظام قد اهتزت، لقد بدا واضحًا أن الجماهير المصرية - مُعبراً عنها بأبنائها من الطلاب - يقاضون السلطة ثمن الهزيمة، ويبحثون عن مخرج يُخلص الوطن من مأساته .

على مشارف السبعينيات كانت الجامعة المصرية، العريقة بتقاليدها النضالية، تستعيد سيرتها الأولى، وتنفتح على أصداء - لا زالت ترن فى الأسماع - للصفوف الطويلة المتتابعة التى رفعت الرايات وهتفت ملء الحناجر، وتقبلت زخات الرصاص بالصدر الأعزل، هاتفة :

" الاستقلال التام أو الموت الزؤام " ، "نموت نموت ويحيا الوطن، نموت نموت وتحيا مصر" .

ثلاثة مصادر للتأثير :

كانت محاولة الإجابة عن كل هذه الأسئلة المطروحة هى المهمة الكبرى لطلائع الحركة الطلابية آنذاك، وبدأت رحلة تفتيش كبرى عن بدائل لثقافة وفكر الطبقة الحاكمة المهزومة، فراحت تعب عبًّا من روافد تاريخ كفاح وثورات وطننا التى لم تتوقف يومًا، فى محاولة مستميتة للبحث عن ركائز للثقة فى قدرة شعبنا على تخطى المحنة، والنهوض من الكبوة، وتحقيق الانتصار.

وفى ظروف بالغة الصعوبة، ألقت بظلالها الكئيبة على وقائع تلك الأيام، امتدت على مدار عقد كامل من السنين، الرحلة المضنية لهذه الطلائع، بهدف البحث عن يقين جديد، يعيد تأكيد إيمانها بنفسها وبلادها، ويُعوض الفراغ الشاغر بعد انكشاف إفلاس فكر الطبقة الحاكمة، واتضاح عجزها عن حماية التراب الوطنى، أو تحقيق مطالب الشعب، وتتابعت فصول هذه الرحلة فى ظل مصادر ثلاثة للتأثير:

المصدر الأول: انطلاقة الثورة الفلسطينية التى مثلت الرد الموضوعى على وضعية الهزيمة، فالشعب المقاتل، بالسلاح فى أيدى الجماهير، بالصدام الفدائى - الحقيقى مع العدو - بالإمكانات المتاحة (دون اللجوء لشماعة تفاوت القدرات العسكرية بيننا وبينه)، بالحسم فى مواجهة أسباب الهزيمة . . هو الطريق الذى لا طريق غيره للتحرير .

المصدر الثانى: الصمود الفيتنامى ضد الإمبريالية الأمريكية، فها هو شعب فقير، فلاحى، مُسالم، يُفرض عليه أن يواجه أعتى الدول الاستعمارية فى التاريخ، فلا يتراجع ولا ينحنى ولا يهرب من أعباء المواجهة، بل يتحملها بصبر أسطورى، ويواجهها بعبقرية الشعوب حين تدافع عن أسباب الحياة، وينتصر . . ونحن أيضًا يمكننا أن نفعل !.

أما المصدر الثالث: فقد كان المثل "الجيفارى" النبيل، النموذج الأسطورى الذى انبهر به شباب جيلنا، ولا زال مبعث احترام كل

شباب العالم، للتضحية بالذات ولهجر كافة ملذات الحياة، وإغراءات المنصب استجابة لنداء الثورة، وتلبية لواجبات الثورى الحقيقى فى مواجهة ثوريىّ المكاتب، المناضلين بالاسم فقط، والمتاجرين بالنظريات والمبادئ !.

من هذه المصادر الثلاثة بدأت رحلة اكتشاف طلائع الحركة الطلابية فى السبعينيات للأفكار الثورية أفكار(جديدة / قديمة) فى آن واحد، رحلة لا تعبأ كثيراً بالوقوف أمام قدسية النص، أو الغرق فى محاورات بيزنطية عقيمة، معزولة، بقدرما تهتم بتجسيد روحه فى النضال اليومى للجماهير فى الشارع .

لا يمكن القول إن الأمور بدأت واضحة جلية منذ الخطوة الأولى، لكن مع تطور الأحداث ومقتضيات الكفاح اليومى، وتبلور الوعى بين الطلائع السياسية، العمالية والثقافية والطلابية، كانت انتماءاتهم الفكرية اليسارية - الديمقراطية - الوطنية، تتضح بصورة أكثر تحديداً، وأشد سطوعًا، وكانت مفاهيم جديدة كل الجدة تتسرب إلى مداركهم :

التحالف مع الطبقة العاملة، حرب التحرير الشعبية، الكفاح المسلح ضد الاحتلال الصهيونى، الحزب الثورى، الديمقراطية الشعبية، اقتصاد الحرب . . ألخ، كما كان الشق يزداد تعميقًا يومًا بعد يوم آخر، بينها وبين مواقف النظام، خاصة بعد مايو ١٩٧١ .

والحق أن الحركة الطلابية كانت من أوائل القوى - إن لم تكن أولاها على الإطلاق - التى أدركت بوعى نقى لا تشوبه شائبة،

وبحس غريزى صادق، أن البلاد مُقدِمة على مرحلة خطيرة للغاية، تقتضى انتباهًا فائقًا، وحركية عالية فى مواجهتها.

كانت الحركة الطلابية قد اكتسبت أرضًا جديدة فى الفترة التى تلت انفجارات ١٩٦٨، فى جامعات القاهرة والإسكندرية وعين شمس وأسيوط، وغيرها من الجامعات والمعاهد العليا، بكل المحافظات، خاصة فى كليات الهندسة، وهندسة القاهرة بالتحديد، وامتدت رياح الثورة إلى المدارس الثانوية أيضًا.

وكان أهم إنجازات الحركة الطلابية، فى الواقع، قد تمثل فى تبلور مجموعة هيئات تنظيمية مستقلة للطلاب، متناثرة هنا وهناك: جمعيات وجماعات وتشكيلات متعددة، منها: جماعة "أنصار الثورة الفلسطينية" بكلية الهندسة جامعة القاهرة، جماعة "عبد الحكم الجراحى"، جماعة "مصر"، جماعة "النديم"، جماعة "مصر"... إلخ، فى كليات أخرى وجامعات أخرى، وهى جماعات، فى أغلبها، ذات طبيعة (يسارية) متقاربة، نهضت بصورة شبه منظمة، على امتداد أغلب كليات جامعات ومعاهد مصر، تحمل ذات الهموم ونفس التوجهات، وتسعى خلف تحقيق أهداف واحدة، ويزداد تمايزها يوم بعد يوم عن مؤسسات السلطة، وترتفع قدراتها على استقطاب القاعدة الطلابية مع كل صدام لانتزاع استقلالية الكيان التنظيمى الثورى لها، كما أنها استطاعت بالعبقرية العفوية للجموع، ابتكار صيغ وأشكال جديدة للتعبير: (صحف الحائط - المعارض الفنية المفتوحة - الحفلات الغنائية

الثورية التى شارك فيها بدور كبير الشعراء: أحمد فؤاد نجم، وسمير عبد الباقى، وزين العابدين فؤاد، ومحمد سيف،.. إلخ، ومن المغنين الشيخ إمام عيسى فنان الشعب العظيم، والفنان الكبير عدلى فخرى وغيرهما)، وقد واكبت الطرق المستحدثة الأساليب التقليدية المتوارثة عن الأجيال السابقة (المؤتمرات - المظاهرات - المنشورات .. إلخ)، الأمر الذى حول الجامعة - بالفعل - إلى رئة ديمقراطية، يتنفس عبرها المجتمع كله نسيم الديمقراطية الشعبية الحقيقية، وكعبة لدعاة التغيير، ورافضى واقع الهزيمة.

ومن هنا كان انفجار الانتفاضة الطلابية الكبرى (١٩٧٢ - ١٩٧٣) قمة طبعية، أو ذروة موضوعية، للتصعيد الدرامى للوضع فى مصر وجامعاتها!.

عام الضباب والطوفان:

فى يوم الخميس ١٣ يناير ١٩٧٢ وجّه أنور السادات خطابًا للأمة، برر فيه تقاعسه عن تنفيذ وعده - بأن يكون عام ١٩٧١ هو عام الحسم، ضد العدوان الإسرائيلى - بأن ضباب الحرب الباكستانية الهندية قد أعاق تنفيذ هذا الوعد، وفى يوم السبت ١٥ يناير، كان الرد الطلابى فوريًا وحاسمًا، فغمرت جامعات مصر آلاف المنشورات وصحف الحائط التى تندد بهذا العذر الواهى، وتهيب بالشعب التداعى لوضع حد للعبث بمصير الوطن.

كانت البداية بمبادرة من جماعة "أنصار الثورة الفلسطينية"، وغيرها من الجماعات (اليسارية)، بكلية الهندسة جامعة القاهرة،

التى دعت لمؤتمر حاشد عقد يوم الاثنين ١٧ / ١ / ١٩٧٢ ، حيث نادى الطلاب بتسليح الجماهير للقيام بدورها فى مواجهة العدوان الصهيونى ، ورفضوا تمييع القضية فى متاهات الحل الاستسلامى ، وأدانوا سياسات "اللا سلم واللا حرب" ودعاتها ، كما طالبوا بقطع العلاقات مع الأب الروحى لعدونا : الولايات المتحدة الأمريكية ، وبتدريب الطلاب على الأعمال العسكرية ، وأعلن الطلاب عن عقد مؤتمر موسع آخر يوم الأربعاء ١٩ / ١ / ١٩٧٣ (كُلفتُ من زملائى بأن أديره) ، حضره ممثلاً عن النظام د . أحمد كمال أبو المجد - وزير الشباب - يومئذ ، الذى اضطرته حدة التساؤلات المطروحة أمامه ، ووضوحها إلى الاعتراف بأنه لا يملك إجابة ولا يستطيع رداً ، مُصَرِّحًا بتصريحه الشهير الذى اعتصم على إثره الطلاب ، ففى مواجهة سيل الأسئلة الصعبة أجاب أنه لا يملك رداً "فما أنا إلا بوسطجى يحمل تساؤلات الطلاب للرئيس السادات ، ويعود برده عليها ! !" ، وهنا ثار الطلاب وطالبوه بالرحيل ، على لسان "بطلة من زماننا" ، الراحلة العظيمة "سهام صبرى" ، وأعلنوا الاعتصام فوراً : "حتى يأتى من يملك الرد على تساؤلاتهم" ، أى الرئيس السادات نفسه ! .

وتطور اعتصام كلية الهندسة بالدعوة إلى الاعتصام العام الذى امتدت آثاره وسرت فى أنحاء جامعات مصر سريان النار فى الهشيم ، وانتقل الاعتصام من كلية الهندسة إلى القاعة الكبرى ، قاعة "جمال عبد الناصر" ، بالحرم الجامعى ، وانتُخبت "اللجان

الوطنية" بالكليات انتخابًا ديموقراطيًا مباشرا" ، وكون ممثلوها "اللجنة الوطنية العليا لطلاب مصر" (٣٨) ، قائدًا شرعيًا ، ووريثًا حقيقيًا للتقاليد النضالية لطلاب مصر وشعبها ، استلهامًا واستمرارًا لقيم الكفاح الوطنى لـ " اللجنة الوطنية للعمال والطلاب" ، التى تألفت فى الأربعينيات من القرن الماضى .

وقد أشرفت "اللجنة الوطنية العليا لطلاب مصر" ، التى حظت باحترام فورى واسع النطاق ، على تنظيم الاعتصام الكبير فى الجامعة ، وعلى إدارة شئون الانتفاضة الطلابية بكفاءة واقتدار ملحوظين ، وفى مناخ تشوبه ضغوط هائلة ومحاولات مستميتة من السلطة وأجهزتها ، تستهدف شل حركتها وعزلها عن جماهيرها .

وحيال موجات الاضرابات والاعتصامات الطلابية التى عمت البلاد ، واستقطبت الاهتمام العام فى الداخل والخارج ، لم تجد السلطات ما تواجه به ثورة الشباب الجديدة ، إلا باقتحام الحرم الجامعى بالمصفحات والقنابل المسيلة للدموع للمرة الأولى فى تاريخ مصر ، وألقت القبض على أكثر من ألف من الطلاب المعتصمين فجر يوم ٢٤ يناير (وليس على أربعين فردًا فقط ، كما ذكر د . أحمد كمال أبو المجد ، فى مقاله بجريدة "الأهرام" بمناسبة رحيل د . أحمد عبد الله ، يوم ١٢ / ٦ / ٢٠٠٦) .

غير أن ذلك لم يوقف استمرار الاضرابات وحركات الاحتجاج العنيف ، التى نزلت إلى الشارع المصرى بصورة لم يسبق لها مثيل ، تطالب بالإفراج عن الزملاء المسجونين ، وتكون اللجان الوطنية

المؤقتة حتى الإفراج عن أعضاء اللجنة المعتقلين، وخرجت الحركة الطلابية من خلف الأسوار لكى يتم التحامها التاريخى بالجماهير فى الشارع، مجسدة حالة نادرة من حالات الاكتمال والتحقق، عبر عنها غناء الشيخ إمام للمعتصمين، وقصيدة أمل دنقل الخالدة "الكعكة الحجرية" وغيرها من أشكال الإبداع، حاولت السلطة، بإدراك واع حظر استمرارها، ووضع حد لها بالافراج عن المعتقلين، ومحاولة امتصاص الغضبة الطلابية العارمة !.

وكان من أبرز علامات هذه الانتفاضة الطلابية الجديدة بروز مجموعة متميزة من القيادات الطلابية والشبابية الشجاعة، التى حازت ثقة قاعدتها الطلابية، على رأسهم أحمد عبد الله رزة، طالب كلية الاقتصاد والعلوم السياسية الموهوب، فصيح اللسان والبيان، الذى امتلك حضوراً كاريزمياً باهراً.

وفى شهادة لم تنشر يكتب أحمد عبد الله رزة، عام ١٩٨٥، أى بعد ١٣ عامًا من هذه الأحداث رؤيته لها :

أشهد بأن . . .

" العام ١٩٧١ كان عام ضيق وتبرم من قبل الشعب المصرى وسائر الشعوب العربية التى طال أمد ترقبها لتحرير أراضيها التى احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧، وكان الطلبة فى طليعة المترقبين الباحثين لأنفسهم عن دور فى معركة التحرير، وقد ازدادت حدة التبرم الطلابى من جراء الهوّة الواسعة بين ما كانت تردده وسائل الإعلام من شعارات حول المعركة، والواقع الذى يعيشون، فقد كثر

الترديد الرسمى لشعارات مثل "الصمود" و"الردع" و"المواجهة" و"التصدى" بما عبّأ الطلاب للبحث عن ترجمة عملية ملموسة لهذه الشعارات، أو اعتبارها مجرد دعاية لتضليل المواطنين، وكانت القشة التى قسمت ظهر البعير هى شعار"الحسم" الذى رفعه الرئيس السادات، حين أعلن فى إحدى خطبه أن عام ١٩٧١ سوف يكون "عام الحسم" ثم ما لبث أن مر دونما حسم لمعركة التحرير، وقد أدى ذلك إلى تولد روح التساؤل فى صفوف الشعب حول سبب حنث الرئيس السادات بوعده، وقد انعكس ذلك فى محيط الجامعة على شكل مجلات حائط تسأل وتسخر وتنقد فى روح غاضبة، وكان طلاب كلية الهندسة بجامعة القاهرة هم الأكثر إنتاجًا لمجلات الحائط، وكان من نصيبى فى هذه مجلة أسميتها "المسودة" وكتبت على هامشها أن سبب تسميتها بهذا الاسم هو رغبتى فى أن أنشر أمام زملائى وجهات نظرى فى القضايا الوطنية بمطلق الحرية، ودون خوف فى أى رقابة، وكان المقال الأول الذى حملته المسودة بعنوان "يارب يا حاسم !" .

وفى منتصف يناير ١٩٧٢ أدلى الرئيس السادات بخطبة برر فيها قصوره عن الوفاء بوعده، حيث قال بإن الحرب الهندية - الباكستانية - التى اندلعت آنذاك قد وضعت أمامه "ضبابًا" منعه من التقدم إلى معركة التحرير، بحكم انشغال الاتحاد السوفيتى فى تلك الحرب وعدم قدرته على الانخراط فى حرب أخرى بالشرق الأوسط، ولم يكن هذا التبرير كافيًا لإقناع

المواطنين، بل أصبحت كلمة "الضباب" مثاراً لسخرية المواطنين وصيغت من حولها نكاتهم، وقد انعكس ذلك فى محيط الجامعة حيث اشتدت لذاعة مجلات الحائط التى تسخر من تبرير "الضباب"، وبدأ طلاب مختلف الكليات بجامعة القاهرة فى التجمع التلقائى، وفى الاستجابة لنداءات زملائهم النشطين سياسيًا، حيث عقدت مؤتمرات طلابية كان أولها فى هندسة القاهرة.

وفى هذه المؤتمرات خرجت البيانات المعبرة عن وجهات نظر الطلاب فى المعركة الوطنية على وجه العموم، والرافضة لأساليب التبرير الرسمى على وجه الخصوص، وقد حملت وفود طلابية هذه البيانات إلى قيادة الاتحاد الاشتراكى. وقد كانت هذه القيادة بالإضافة إلى قيادة الجهاز التنفيذى قد شهدت تغييراً فى خضم التحركات الطلابية جاء بالمهندس سيد مرعى سكرتيراً للاتحاد الاشتراكى وبالمهندس عزيز صدقى رئيساً للوزراء، وكان تعيين الأول مثار استهجان الكثيرين فى الطلاب الذين لم يعتبروه اشتراكيًا بينما جاءت الإجراءات التقشفية العاجلة لوزارة الثانى دون ما دعا إليه الطلاب من تعبئة شاملة لأجل المعركة الوطنية.

وفى المؤتمر الذى انعقد فى كلية الاقتصاد بجامعة القاهرة قمت بصياغة شعار من وحى اللحظة أصبح فيما بعد شعاراً للحركة كلها: "كل الديمقراطية للشعب.. وكل التفانى للوطن".

وفى هذا المؤتمر دخلت فى مجادلة مع الدكتور رفعت المحجوب عميد الكلية، الذى حاول تهدئة غضب الطلاب بأسلوبه الخطابى المعهود، حيث رددت عليه بمثله مفتتحاً كلامى ببيت الشعر التالى:

أتسأل مصر ما حمل العميدُ
وهل عند الرماة لها جديدُ ؟!
هو السهم الذى عرفته يوماً
وجّرّب وقعهُ الشعب الوئيدُ !

وفى هذا المؤتمر أيضًا طرح أحد الطلاب اقتراح حضور رئيس الجمهورية للجامعة للإجابة عن تساؤلات الطلاب التى لم يجب عنها غيره من المسئولين، مثل الدكتور كمال أبو المجد وزير الشباب، الذى حضر مؤتمراً لطلاب كلية الهندسة الذين كانوا قد بدأوا الاعتصام داخل كليتهم لعدة أيام.

وفى العشرين من يناير ١٩٧٢ انعقد مؤتمر طلابى عام فى قاعة ناصر، وحضر هذا المؤتمر آلاف من الطلاب فى سائر كليات جامعة القاهرة وزع عليهم بيان ملخص للتساؤلات الطلابية وموقع من اللجنة الوطنية، وفى بداية المؤتمر أقر الطلاب اختيار اللجنة الوطنية لإدارته وتم اختيارى رئيساً للجنة بناء على ترشيح من الزميل زين العابدين فؤاد الطالب بآداب القاهرة، وبعد ذلك تليت البيانات الصادرة عن مختلف الكليات واختيرت لجنة لصياغة "وثيقة طلابية" تلخص كل ذلك.

وقام وفد من المؤتمر بحمل الوثيقة إلى منزل رئيس الجمهورية ومعها دعوة لحضوره إلى الجامعة للإجابة عن تساؤلات الطلاب، ولما

لم يستجب رئيس الجمهورية تحول المؤتمر إلى اعتصام، وتكررت دعوة الرئيس إلا أنه أصر على عدم الاستجابة.

وكان جو هذا الاعتصام الطلابى مفعما بالحماس والغضب على نحو ما. كما وصفته كأحد المشاركين:

"خلال تلك الأيام الحافلة - كانت القضية الوطنية - الاحتلال المهين وكابوس العدو الجاثم على الصدور، المحور المركزى للصراع، كانت القضية الوطنية، وفلسطين فى القلب منها، حاضرة بشدة فى كل لحظة من لحظات الاعتصام، حاضرة كما لم تكن من قبل فى أى فترة من الفترات السابقة، وكان حلم الكفاح الشعبى والسلاح فى أيدى الجماهير، القادرة وحدها على التحدى والانتصار، يؤرق ليل أولئك الشباب والشابات الذين صمدوا فى وجه دولة بكل ما تملك من قوة وقدرة على البطش".

وعلى هذا النحو فقد تمحورت مطالب الطلاب المصاغة فى "الوثيقة الطلابية"، التى رددوها فى مؤتمراتهم حول قضية المعركة الوطنية وتحرير الأراضى المحتلة دون ارتكان للحلول السلمية، وتعبئة الشعب لأجل حرب شعبية فى سبيل التحرير، وبناء اقتصاد حرب يقوم على تكافؤ التضحيات فى سبيل المعركة الوطنية، والتمسك بالديمقراطية أسلوبًا للحكم، وبرغم ذلك فقد اتسمت هذه المطالب أحيانًا بعدم الوضوح.

وكحل وسط لإنهاء الاعتصام الطلابى، قام وفد كبير من الطلاب بالذهاب إلى البرلمان لعرض المطالب الطلابية، حيث قمت بإلقاء

كلمة كما دارت مناقشة بين الطلاب وأعضاء البرلمان كانت من نوع حوار الطرشان، وقد وعد وكيل مجلس الشعب الدكتور جمال العطيفى بنشر مطالب الطلبة فى الصحف، وعاد الوفد الطلابى للجامعة، لكنه فى فجر اليوم التالى (٢٤ يناير ١٩٧٢) قامت قوات الأمن المركزى بمداهمة - رحم الجامعة - وقبضت على الطلاب المعتصمين البالغ عددهم نحو الألف .

وفى صباح نفس اليوم اندلعت مظاهرات طلابية كبيرة، تمكنت من الوصول لميدان التحرير والاعتصام فيه، وكان ذلك أول نزول جماهيرى إلى الشارع فى عهد الرئيس الراحل أنور السادات، مما سبب له نوعًا من العقدة النفسية التى ظلت تسيطر عليه حتى أخريات أيامه، إذ أكد فى خطبه وأحاديثه الصحفية أن كل الاضطرابات فى عهده قد بدأت مع حركة يناير ١٩٧٢.

وبالإضافة لكونها أول تعبير عن موقف جماهيرى إزاء القضية الوطنية فى عهد الرئيس السادات، فإن انتفاضة يناير كانت بالمثل تعبيراً جماهيريًا عن الموقف من القضية الديمقراطية، إذ إنها وضعت فى محك الاختبار العملى الشعارات الديمقراطية التى أكثر الرئيس السادات فى ترديدها، وبذلك نالت حركة الطلبة تأييد جمهور المثقفين (بيانات التأييد فى النقابات المهنية) وتعاطف قطاع أوسع من جماهير الشعب، فكانت بذلك مقدمة للتطورات السياسية التى شهدتها مصر فيما بعد، بما فى ذلك الضغط الشعبى الذى ولّد حرب أكتوبر ١٩٧٣، ثم تجربة التعدد الحزبى الراهنة التى يشارك

فيها جيل الشباب الذين تدربوا فى مدرسة الحركة الطلابية، بما فيها انتفاضة يناير ١٩٧٢" (٣٩).

***

تجربة التنظيم الطلابى الديمقراطى المستقل :

نادى الفكر الاشتراكى التقدمى :

كان تأسيس "نادى الفكر الاشتراكى التقدمى" ذروة الجهد التنظيمى للقوى اليسارية فى الجامعة، فبعد حوار متعدد الجوانب واسع المدى شمل الخطوط العامة لبرنامج نضالى مشترك، توحدت تحت رايته هذه الجماعات، وقد تم انتخاب ممثلين لكليات الجامعة انتخابًا ديمقراطيًا حرًا، أعقبه تشكيل هيئة تنفيذية انتخبتْ أمينًا عامًا للنادى (٤٠).

واستطاع هذا الكيان فى الفترة القصيرة التى قاد العمل خلالها (مايو ١٩٧٦- يناير ١٩٧٧) أن يرتقى باساليب النضال، وأن يعيد تنظيم الصفوف التى كان قد اعتراها الوهن نتيجة لتخرج عدد كبير من الكوادر الساسية من جهة، ولملاحقة النظام لباقى الكوادر من جهة أخرى.

وقد كان من أبرز نشاطات الفكر الاشتراكى التقدمى الإنجازات الثلاثة التالية :

١- إنجاز مشروع برنامج وطنى ديمقراطى للنضال، جسّدَ خلاصة فكر الحركة الطلابية اليسارية فى السبعينيات، وعكس رؤية اليسار المصرى لطريق الخروج بالمجتمع من أزماته.

٢- الحوار المتصل بين الاتجاه الاشتراكى والاتجاه الناصرى فى الجامعة، "حوار الجيل" (كما أطلق عليه)، الذى توصل إلى صيغ للنضال المشترك، وبرنامج للنشاط الجماعى فى الجامعة .

٣- أسبوع الجامعة والمجتمع (٢ - ٢٧ نوفمبر ١٩٧٦) : وقد كان هذا الأسبوع من أهم الأحداث السياسية فى الجامعة والتى تلت وقائع انتفاضة ١٩٧٢ ، واعتبره السادات (بروفة) الانتفاضة الشعبية فى (١٨ - ١٩ يناير ١٩٧٧) ، وقد تكلل هذا الأسبوع السياسى بمظاهرة حاشدة توجهت إلى مجلس الشعب ، حيث سلمت المسئولين فيه بيانًا احتوى مطالب الحركة الطلابية مجسدة فى البنود التالية (٤١) .

- رفض صيغة الأحزاب الحكومية .
- إلغاء التشريعات المقيدة لحريات الجماهير .
- تحسين وسائل معيشة الشعب ورفع الحد الأدنى للأجور
- حق الجماهير فى التعبير بالرأى والتظاهر والإضراب .
- إلغاء جميع البدلات لكبار موظفى الدولة .
- رفض سياسة رفع الدعم .
- رفض سياسة الانفتاح الاقتصادى .
- رفض اتفاقية الفصل بين القوات .
- رفض وجود أجهزة الإنذار والتجسس الأمريكى بسيناء .
- حق إقامة فصائل المقاومة الفلسطينية والعمل بمصر، وحق الشباب المصرى فى التطوع للنضال فى صفوفها .

والجدير بالذكر أن عدداً من قيادات "نادى الفكر الاشتراكي"، كانوا من الذين وُجهت إليهم تهمة تزعم الانتفاضة الشعبية فى يناير ١٩٧٧ .

كل الديمقراطية للشعب . كل التفانى للوطن :

لكن على الضفة الأخرى للنهر، لم يكن النظام بقادر على ممارسة "ضبط النفس" بأكثر مما فعل، فكل يوم يمضى يخسر أرضاً جديدة، وتتفتح زهور جديدة، وتنشأ منافذ جديدة للنور، وتتهدد أركانه بانتشار حمى الوعى التى تمور بها الجامعات خارج الأسوار، وبالذات إلى المناطق العمالية الساخنة التى بدأت طلائعها تشعر بما يحدث فى الحرم الجامعى وتتحرك للاتصال به.

وكان الشعار العبقرى الذى صكه المنتفضون: "كل الديمقراطية للشعب . . كل التفانى للوطن"، يفعل فعل السحر فى النفوس، وتحولت الجامعة إلى كعبة لعشاق الحرية فى مصر، الذين رأوا فيما يحدث ميلاداً جديداً للبلاد التى أرهقها حمل الهزيمة، وأملاً جديداً للخلاص من عار الاحتلال.

أما فى أروقة الاتحاد الاشتراكى، التنظيم السياسى للحكم، وفى دهاليز أجهزة الأمن، وفى مكاتب أركان النظام وقصوره، فلم تنقطع للحظة المؤامرات المحاكة لتدمير الانتفاضة، وإجهاض الثورة الطلابية واحتواء تداعياتها وتوابعها !.

فالسادات، شخصياً، يشن حملة شعواء، متكررة، على الانتفاضة، ويتهم قيادتها بأنهم "شرذمة" فاسدة، أما القاعدة

الطلابية "فهى بخير" ، وتزعم أجهزة الإعلام الرسمية أن قادة الحركة الطلابية عملاء مأجورون (! !) ، فيما يتحرك الاتحاد الاشتراكى ، بقيادة أمينه العام الإقطاعى سيد مرعى ، ورئيس لجنة النظام محمد عثمان إسماعيل ، لتنظيم كتائب تخريب الانتفاضة الطلابية ، وتقديم الدعم بالسلطة والمال لهذه الكتائب ، وشهدتُ بأم عينى أستاذًا فى كلية الهندسة "د. إبراهيم فوزى" محمولاً على أعناق عدد من الطلاب ، المرتبطين بأجهزة الأمن ، وهو يحاول اقتحام قاعة الإعتصام ، هاتفًا مع أنصاره : "الشيوعيين أهم . . الشيوعيين أهم ! !" ، مشيرًا إلى القاعة التى غصت بآلاف الطلاب الوطنيين ، وقد طُرد الدكتور "د. إبراهيم فوزى" ، شر طردة ، من القاعة ، لكنه نال مكافأته من النظام بتوليه وزارة لها علاقة بتخصصه ،بعد ذلك ببضع سنوات ! .

عفريت الإرهاب الدينى :

أما أخطر وأهم الأساليب التى لجأ إليها النظام ، فى محاولاته المحمومة لإجهاض انتفاضة الطلاب ، فقد كان لجوئه إلى استخدام سلاح الدين فى الصراع السياسى ، واستخراجه "عفريت" الإرهاب المتستر زيفًا بالدين من مكمنه ، ولدى فى هذا السياق شهادات دامغة لا مجال لإنكارها أو المزايدة عليها ، هذه مجرد أمثلة منها :

شهادة المهندس "وائل عثمان" (خريج هندسة القاهرة) ، فى كتابه المعنون "أسرار الحركة الطلابية ، هندسة القاهرة : ٦٨ ـ ١٩٧٥" (٤٢) :

والذى يحكى عبر صفحاته وقائع الاتصالات والاجتماعات التى جرت بين شباب ما كان يسمى آنذاك بـ"التيار الإسلامى" وأركان النظام وأجهزة الأمن، للتخطيط من أجل تحطيم انتفاضة الطلاب، ويكفى للدلالة على هذا التوجه الخطر ما ذكره "وائل عثمان" على لسان "سيد مرعى"، الأمين الأول لـ"اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى"، التنظيم السياسى الأوحد، آنذاك، : "إن ميزانية "منظمة الشباب" تبلغ مليونًا ونصف المليون من الجنيهات، وأعتقد أنكم أولى بها، ويسعدنى أن أضع كافة إمكانات "الاتحاد الاشتراكى" رهن إشارتكم !!" (٤٣).

وبالطبع فإن هذا العرض السخى يُقدم مقابل الدور المطلوب لضرب الانتفاضة الطلابية الوطنية !.

ـ شهادة "محمد عثمان إسماعيل"، نفسه، التى ذكر فيها بالحرف: "بادئ ذى بدء، أُقِرُّ أننى شكّلت الجماعات الإسلامية فى الجامعات بالاتفاق مع المرحوم السادات" (٤٤) !.

ـ شهادة اللواء "فؤاد علّام" المدير السابق لمكتب النشاط الدينى بمباحث أمن الدولة، التى يروى فيها جانبًا من دور "محمد عثمان إسماعيل"، والدكتور "محمود جامع"، اللذين "كلفهما السادات بتشكيل تنظيمات دينية فى الجامعة لمواجهة وقمع الحركة الطلابية.. وحدث اجتماع مهم فى مقر الاتحاد الاشتراكى حضره المستشار "محمد إبراهيم دكرورى" و"محمد عثمان إسماعيل"، واتُخذ القرار السياسى بدعم نشاط الجماعات الدينية ماديًا

ومعنويًا، واستخدمت أموال الاتحاد الاشتراكي في طبع المنشورات وتأجير السيارات وعقد المؤتمرات، وأيضًا في شراء المطاوى والجنازيرالتي وضعها أركان التنظيم السياسي للدولة في أيدى الجماعات الدينية في الجامعات" (٤٥)، وبعد أن مزّقت أجسادنا داخل الحرم الجامعي، عادت لتصبح مدافع رشاشة ومتفجرات تمزق شمل الوطن، وتضرب النظام في الصميم، بعد أن تغيرت التحالفات، وشعرت هذه الجماعات الإرهابية أن الوقت قد حان للانقضاض على السلطة، وتحقيق أهدافها الخطيرة، المعلنة، عن تقويض الدولة الوطنية، وبناء دولتهم على أنقاضها!..

ـ وشهادة أخرى حديثة:

وفي وثيقة مهمة تم الكشف عنها حديثًا، نشرتها شبكة "ويكيليكس"، (Wikileaks)، تحمل الرقم [1976CAIRO04727_b]، بعنوان "الحكومة المصرية تُشجّع على ظهور يمين إسلامي"، صادرة عن السفارة الأمريكية بالقاهرة، يوم ٩ أبريل عام ١٩٧٦، حول قرار الحكم المصرى، بقيادة الرئيس الأسبق "أنور السادات" القاضي بـ" تمويل وتأسيس كتلة يمينية تشمل جماعات التيار الديني، لتبقى على المسرح السياسي في مواجهة الكتلتين: الناصرية والماركسية"، اللتين أشعلتا المشهد السياسي المصرى، آنذاك، "وتسببتا في نشوب حالة من الاحتقان السياسي، بسبب تردى الأوضاع الاقتصادية، التي رأوا أن قوانين السادات الانفتاحية كانت سببا فيها" (٤٦).

واستناداً إلى حوار مع رئيس "المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية"، "محمد توفيق عويضة"، الذى التقاه السفير الأمريكى، فإن "عويضة" ضرب مثالاً للتدليل على "بسط نفوذ اليمين الإسلامى على كلية الهندسة بجامعة القاهرة، والمعروفة بنشاط الكتلة اليسارية فيها!". تقول الوثيقة، إن "رجل الأعمال المعروف بخلفيته الإخوانية"، المليونير "عثمان أحمد عثمان"، (نائب رئيس الوزراء، وصهر "السادات")، "أغدق من ماله على الكلية، وعلى أنشطتها (المضادة لليسار)، مستعيناً بخلفيته السياسية فى تعامله مع طلاب الكلية، كما تم استقدام المحاضرين من ذوى الانتماءات الدينية إلى الكلية، كان من بينهم محاضر أتى من السعودية، وآخر ينتمى إلى جماعة الإخوان ممن أخرجتهم الحكومة المصرية خارج البلاد، وشهدت الكلية جلسات منتظمة لقراءة القرآن وتفسير معانيه، كما صودرت جريدة الكلية لأنها أجرت حواراً مع الكاتب "محمد حسنين هيكل"!..".

وتقول الوثيقة إن" جهود الحكومة المصرية لدعم التيار الإسلامى لم تقتصر على الحرم الجامعي، بل امتدت لتشمل السماح بإصدار مجلة "الاعتصام" التى تصدر شهرياً، وتم من خلالها إفساح المجال للترويج لأفكار ومواقف إسلامية متطرفة، إلى جانب إطلاق المحطات الإذاعية والقنوات التلفزيونية التى تدعو إلى العودة إلى "تقاليد الإسلام"..!"(٤٧).

وقد أكد الأستاذ "محمد حسنين هيكل" هذا المعنى، حين أشار إلى "السياسة الجديدة" التى فكر فيها، وأشرف على تنفيذها،

المهندس "عثمان أحمد عثمان"، وكان مؤداها "استعمال شباب "الجماعات الإسلامية" في التصدى لجمهور الشباب القومى (والتقدمى)، فى الجامعات، ومع استمرار مظاهرات الطلبة بسبب فوات "عام الحسم" (١٩٧١) - كما أسماه الرئيس "السادات" - دون حسم، فإن مطلب التصدى تحول إلى مطلب ردع، وكان أن ظهرت العصى والجنازير وسكاكين قرون الغزال. وبالطبع، فإن نزعة العنف لم تقتصر على الجامعة، وإنما تسربت إلى المجتمع الواسع خارجها!" (٤٨).

بل إن "نزعة العنف" هذه، سرعان ما تحولت إلى رصاصات قاتلة، انطلقت من أصابع أولئك الذين راهن عليهم فى معركته ضد معارضيه وخصومه السياسيين، فاغتالت "أنور السادات" نفسه، فى احتفالات "نصر أكتوبر"، يوم ٦ أكتوبر عام ١٩٨١.

ورغم كل هذه المحاولات الإرهابية، فلقد أصبحت الجامعة على امتداد خمس سنوات كاملة (١٩٧٢ : ١٩٧٧) أشبه ما يكون بـ "منطقة محررة" تحققت فيها، عبر العشرات من المعارك اليومية، والتضحيات الجسيمة، مكاسب ديمقراطية ملموسة للقاعدة الطلابية، كحق التنظيم والتعبير والتظاهر والإضراب والاعتصام، وغيرها من الحقوق، ولأول مرة فى تاريخ مصر السياسى، منذ يوليو ١٩٥٢، واستمرت بؤرة الحرية فى مصر تشع النور والأمل فى البلاد، إلى أن وقعت أحداث "انتفاضة الخبز والديمقراطية"، فى ١٨، ١٩ يناير ١٩٧٢، حيث واتت السلطة الفرصة التاريخية لشن

جرب إبادة ضد الانتفاضة الطلابية التقدمية، بهدف القضاء المبرم على مظاهرها وتداعياتها .

وعلى الرغم من العنف الذى واجهت به السلطة انتفاضة الطلاب وعمليات "الأرض المحروقة" التى استهدفت اجتثاث كل جذور الوعى الشبابى والطلابى بعدها، خاصة فى أعقاب تفجر انتفاضة ١٨، ١٩ يناير ١٩٧٧ المجيدة، (التى أسماها السادات كراهيةً "انتفاضة الحرامية" !)، استمر "جيل السبعينيات" المصرى قابضًا على الجمر، يقاتل بكل ما يملك من طاقة حتى لا تسقط الراية، ولكى يسلمها للأجيال التالية مرفوعة خفّاقة، ومن هنا، فليس صدفة - بأى حال - أن أغلب النشطاء فى الحياة الثقافية والفكرية والفنية فى مصر، حتى الآن، ينتمون إلى هذا الجيل، وأن أغلب مكونات الحركة السياسية الراهنة، "حركة "كفاية" و"الجمعية الوطنية للتغيير"، والعديد من الهيئات والأحزاب السياسية، كمثال، هم من أبناء هذا الجيل الذهبى، الذى أحب الوطن، وتفانى فى الدفاع عن مصالح الشعب .

نحو تقييم موضوعى لإنجازات الحركة الطلابية المصرية فى السبعينيات :

يمكن، بعد ما تقدم من إشارات موجزة، تقييم الحركة الطلابية من أوائل السبعينيات حتى عام ١٩٧٧، باعتبارها انتفاضة طلابية ديمقراطية واسعة النطاق، قادتها طلائع يسارية صلبة، سببها فقدان الثقة فى المؤسسة الحاكمة وسياساتها الداخلية والخارجية، ودفعها

للتفجر رفض سياسات الأمر الواقع المترتبة على الهزيمة وانعكاساتها، والعجز عن قبوله أو التكيف معه، وفى مناخ افتقدت فيه كل الحريات الديمقراطية الحقيقية وغابت فيه الأطراف السياسية الديمقراطية الفاعلة التى استوعبت الطاقات الكامنة فى النفوس .

ويمكن رصد مجموعة من السمات الأساسية لهذه الحركة، أهمها :

١- مثلت هذه الحركة أكبر تحرك جماهيرى واسع النطاق، خارج الأطر المؤسسة للنظام، منذ سنة ١٩٥٢، سواء كان ذلك على مستوى الحجم، أو الاستمرارية، أو نوعية القضايا المطروحة، أو حدة الصدام مع مؤسسات القمع الرسمية.

٢- طرحت الانتفاضة الطلابية مجموعة من القضايا العامة، التى تهم كافة أبناء الوطن، فاستعادت بذلك تقاليد النضال الطلابى القديمة، بعد سنوات من محاولات الاستيعاب والإلهاء، وتحويل جهد الطلاب للحفلات والنشاطات الترفيهية الشكلية .

٣- حرّكت حالة الركود السياسى التى سيطرت على البلاد، خاصة بعد استيلاء السادات فى ١٥ مايو على مقاليد السلطة فى مصر .

٤- طرحت الموقف الاستقلالى عن النظام ومؤسساته، لأول مرة فى مصر منذ عام ١٩٥٢ بقوة ووضوح، عبرت عن طموحات الاستقلالية التنظيمية بوعى، وسعت لخلق أجنّة" لم يكتمل نموها، لكنها جسّدت الإمكانات الموضوعية لهذا الأمر وألقت الضوء على الضعف التنظيمى لحركة اليسار المصرى، وأوضحت ضرورات تجاوز هذا الواقع .

٥- طرحت مبادئ برنامجية، احتوت أغلب الشعارات الأساسية للنضال الوطني والثورى، التى لا تزال، حتى الآن، وبرغم مرور ما يزيد على الأربعين عامًا، صحيحة فى مجملها، كقضايا الديمقراطية والعلاقات بأمريكا، والموقف من العدو الصهيونى والثورة الفلسطينية، وكذلك أكدت تبينها المطالب الاجتماعية للطبقات الشعبية.

٦- أعلنت راية التضامن النضالى مع الشعوب المناضلة فى العالم أجمع، وبالذات الثورة الفلسطينية، التى احتلت نشاطات مناصرتها موقع القلب من نضالات الحركة الطلابية المصرية.

٧- اكتسبت قاعدة جماهيرية عريضة لصف الفكر اليسارى، لأول مرة فى تاريخ الجامعة المصرية، والمجتمع المصرى بأكمله، وعوّدت المواطن المصرى على التعامل معه بشكل طبيعى، بعد سنوات من العزلة بتأثير الحملات المغرضة، واكتسبت تعاطف الهيئات المعنية والنقابات المهنية والتجمعات خارج الجامعة.

٨- وضعت أساسًا عمليًا للحوار بين الفصائل الوطنية المصرية (الماركسية / الناصرية) للمرة الأولى، وأوجدت هامشًا واسعًا للتعاون على أرضية برنامجية تؤكد نقاط التلاقى، ولا تغفل تباين المنطلقات أو مواقع الاختلاف، وتتجاوز حساسيات المرحلة السابق فى مواجهة مقتضيات الوضع الراهن ومسئولياته.

٩- نقلت العمل السياسى المباشر إلى الشارع المصرى، بعد أن كان قد تم احتواؤه لفترة طويلة من الزمن داخل الأروقة والمؤسسات

البيروقراطية الرسمية، وأوصلت القضايا السياسية إلى كل بيت مصرى عن طريق تطورات الواقع فى الجامعة، وعن طريق أبنائهم الطلاب المنتشرين فى أنحاء البلاد .

١٠- ساعدت على كسر احتكار عناصر السلطة العمل السياسى، بتشجيع كافة النقابات والتجمعات المهنية على المبادرة باتخاذ موقف من الأحداث، الأمر الذى ساعد على إلغاء احتكار العمل السياسى عن طريق الحزب الواحد، وهو ما كان له فيما بعد أثر كبير فى إنشاء "المنابر"، ثم الأحزاب السياسية القائمة الآن .

١١- كسرت حاجز الرهبة من نتائج التعبير عن الرأى، والخوف من السلطة، ومن مغبة اتخاذ موقف سياسى مخالف لمواقفها، بعد أن أصبحت عملية الدخول إلى المعتقل والخروج منه عملاً يوميًا شبه روتينى للآلاف من الطلاب.

١٢- كوّنت بؤرة إشعاع نضالى، فى بدايات حكم السادات، عبرت بصدق وقوة عن روح المقاومة فى الشعب المصرى، ومثّلت الضمير الوطنى، فى وقت عزَّ فيه الرأى المخالف، وندرت الأصوات المعارضة .

١٣- صححت الرؤية للموقف (اليسارى)، (الماركسى)، من الشوائب التى علقت به فى مواجهة إنشاء دولة العدو الصهيونى، بعد أن نالت شرف أن الحركة الطلابية (اليسارية) المصرية، تعبيراً عن الضمير الوطنى المصرى، والتى قادتها العناصر الماركسية واليسارية فى مصر، كانت أول وأصلب القوى التى ناضلت باتجاه

مواجهة المؤامرة الصهيونية، الأمريكية، الغربية، على الاستقلال الوطنى المصرى، وقاومت كل التنازلات فى مواجهة العدو الصهيونى، وطالبت، وضغطت، من أجل إعداد العدة للقتال، تطهيراً للترات الوطنى، الأمر الذى شكل أحد أهم الدوافع وراء خوض غمار حرب أكتوبر ١٩٧٣، واستعادة الأراضى المصرية والعربية المحتلة بعد هزيمة ١٩٦٧ .

١٤- اكتسبت مجموعة من الخبرات التنظيمية / الحركية القيّمة، عبر التجربة والخطأ، مثلث زاداً كبيراً لإغناء الواقع السياسى المصرى .

١٥- أمدت اليسار الاشتراكى المصرى بجيل كامل من الكوادر المختبرة، قاد، ولا يزال يقود العمل اليسارى المصرى، ويشارك فى قيادة العمل الوطنى العام، حتى الآن، بعد أكثر من أربعة عقود متواصلة .

الهوامش

١- مذكورة فى عبد اللطيف محمود محمد ، دور الطلبة فى السياسة المصرية ، مجلة اليقظة العربية ، العدد الخامس ، القاهرة ، مايو ١٩٨٦ ، ص : ٤١ .

٢- ـ محمد فؤاد شكرى ، عبد المقصود العنانى ، سيد محمد خليل ، بناء دولة مصر محمد على ، الهيئة العامة لقصور الثقافة (سلسلة ذاكرة الكتابة) ، القاهرة ، ٢٠١٣ ، الطبعة الأولى ١٩٤٨ .

٣- أنظر مقدمة د . محمد أشرف البيومى لكتاب أحمد بهاء الدين شعبان : الدور الوظيفى للعلم والتكنولوجيا فى تكوين وتطوير الدولة الصهيونية ، دار الطباعة المتميزة ، القاهرة ، ٢٠٠٤ ، ص : ١١ .

٤- لمزيد من التفاصيل حول نشأة وأحوال التعليم الحديث فى مصر ، انظر :
د .أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر ، ط (٢) ، (1) [عصر محمد على ، (٢) عصر عباس الأول وسعيد ، (٣) عصر إسماعيل ، (٤) عصر إسماعيل] ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠١١ ، ص : ٩٤ .

٥- المصدر نفسه .

٦- المصدر نفسه ، ص : ٩٦ .

٧- المصدر نفسه ، ص : ٩٧ .

٨- المصدر نفسه ، ص : ١٠٠ .

٩ـ انظر : أ.د.سعد مرسى أحمد ، أ . د . شكرى عباس حلمى ، د.نادية جمال الدين : تاريخ التربية وتاريخ التعليم ، كلية التربية ـ جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٨٧ ص ٣٨٢

١٠ ـ المصدر نفسه ، ص : ١٠٢ـ١٠٣ .

١١ـ على باشا مبارك ، حياتى ، علق عليه وأعد فهارسه عبد الرحيم يوسف

الجمل، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٨٩، ص:٢٦ .

١٢ـ المصدر نفسه، ص:٢٧ .

١٣ـ المصدر نفسه، ص:٣٦ .

١٤ـ المصدر نفسه، ص:٤٥ .

١٥ـ المصدر نفسه، ص:٤٧ .

١٦ـ من خطبة "مصطفى كامل" بالإسكندرية يوم ٢٢ اكتوبر ١٩٠٧، مذكورة في: عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية (تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨)، الطبعة الرابعة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٢، ص:٤٨٦ .

١٧ـ انظر مقدمة كتاب: الثورة العرابية، لـ"اللورد كرومر"، ترجمة:عبد العزيز عرابى، التى كتبها د. يواقيم رزق مرقص، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧، ص:١٩ .

١٨ـ فتحي رضوان، مصطفى كامل، كتاب "اقرأ"، (العدد:٣٩٠)، دار المعارف، القاهرة، ديسمبر ١٩٧٤، ص:٢٧٤ .

١٩ـ انظر: أمين عز الدين، شخصيات ومراحل عمالية، كتاب الجمهورية، العدد١٦، مايو ١٩٧٠، ص:١١ .

٢٠ـ المصدر نفسه.

٢١ـ المصدر السابق، ص ١٤ .

٢٢ـ المصدر نفسه، ص:١٥ .

٢٣ـ جريدة "الشعب"، ٩مايو ١٩١٠: منابت الثورة، أو "مدارس الشعب" الليلية.

مذكورة في: د. عصام ضياء الدين السيد، الحزب الوطني والنضال السرّى(١٩٠٧ـ ١٩١٥)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧، ص:١١٣ .٠

٢٤ـ آرثر إدوارد جولد شميت (الابن)، الحزب الوطني المصرى (مصطفى كامل ـ محمد فريد)، ترجمة فؤاد دوارة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

القاهرة، ١٩٨٣، ص: ١٩٤ .

٢٥ـ أحمد شوقى المحامى، محمد فريد، دار"اللواء" للنشر، ١٩٤٧، ص ص: ٢٩٣ـ٢٩٤ .

٢٦ـ د. مصطفى الديوانى، قصة حياتى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٥، ص: ٢٨ .

٢٧ـ عبد الرحمن الرافعى، ثورة ١٩١٩ : تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٥ .

٢٨ـ مستشار محمد عبد الرحمن حسين، كفاح شعب، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، بدون تاريخ، ص: ٩٤ .

٢٩ـ التحفظات الأربعة هى :

(أ) تأمين المواصلات البريطانية فى مصر .

(ب) الدفاع عن مصر ضد أى اعتداء أو تدخل أجنبى مباشر أو غير مباشر .

(جـ) حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات .

(د) السودان .

انظر: عبد الحميد غرابة، شخصيات لها تاريخ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١١٥ .

٣٠ـ د. ضياء الدين الريس، الدستور والاستقلال والثورة الوطنية ١٩٣٥، جـ ٢، مؤسسة دار الشعب، ١٩٧٦، ص ٩٢ .

٣١ـ المصدر نفسه ص ٩٣ .

٣٢ـ المصدر نفسه .

٣٣ـ عبد المنعم الغزالى، تاريخ الحركة النقابية المصرية (١٨٩٩ـ١٩٥٢)، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٦٨، ص: ٢٦١ .

٣٤ـ من نص "اللجنة الوطنية للعمال والطلبة"، المصدر السابق، ص ٢٦٢ .

وشبيه بهذا الوصف، وصف (الحرامية) الذى استخدم بواسطة "السادات" ونظامه لنعت جماهير الشعب الذين اشتركوا فى انتفاضة ١٨، ١٩ يناير١٩٧٧ (!) .

٣٥ـ شهدى عطية الشافعى، تطور الحركة الوطنية المصرية، دار شهدى للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٣، ص ١٠٨.
٣٦ـ المصدر السابق، ص ١٠٨.
٣٧ـ لمزيد من التفاصيل حول الانتفاضات الطلابية عام ١٩٦٨، راجع سلسلة مقالات د. هشام السلامونى بعنوان " الجيل الذى واجه عبد الناصر والسادات "، مجلة روز اليوسف، بدءاً من العدد (٣٥٨٤)، ١٧ / ١٢ / ١٩٩٧، التى تم إصدارها فى كتاب يحمل نفس العنوان، فيما بعد.
٣٨ـ جريدة الأهرام، ١٤ / ١ / ١٩٧٢.
ضمت عدداً من قيادات الحركة الطلابية الوطنية، أبرزهم: أحمد عبد الله (ممثلاً لكلية الاقتصاد والعلوم السياسية)، وزين العابدين فؤاد (ممثلاً لآداب القاهرة)، وشوقى الكردى (كلية الطب البيطرى)، وأحمد بهاء الدين شعبان (كلية الهندسة) وسمير غطّاس (طب الأسنان)، وآخرين.
٣٩ـ شهادة شخصية، وثيقة محررة بخط الدكتور أحمد عبد الله رزّة.
٤٠ـ هو كاتب هذه السطور، طالب كلية الهندسة جامعة القاهرة، فى تلك الفترة.
٤١ـ تسلم البيان عبد المنعم الصاوى، وكيل مجلس الشعب، آنذاك.
٤٢ـ وائل عثمان، "أسرار الحركة الطلابية ـ هندسة القاهرة: ٦٨ـ١٩٧٥"، مطابع مدكور، القاهرة، ١٩٧٦.
٤٣ـ المصدر السابق، ص: ١٠٢.
٤٤ـ مجلة "روز اليوسف"، العدد (٣٥٠٢)، ٢٤ / ٧ / ١٩٩٥.
٤٥ـ مجلة "روز اليوسف"، العدد (٣٥٠٠)، ١٠ / ٧ / ١٩٩٥.
٤٦ـ جريدة " المصرى اليوم"، ٨ أبريل ٢٠١٣.
٤٧ـ المصدر نفسه.
٤٨ـ مجلة "وجهات نظر"، العدد ١٤، مارس ٢٠٠٠، ص: ١٣.

بطلة من هذا الزمان

حين أكتب عن سهام صبرى فإننى فى واقع الحال أكتب عن نفسى ،وعن زملائى ،وأبناء جيلى . فحياة سهام صبرى ورحيلها كانا فى نهاية المطاف أبلغ تعبير عن روح هذا الجيل المتمرد ورؤاه الثائرة ،وتراجيديا صعوده وهبوطه .

غير أنه من الممكن النظر إلى حياة سهام صبرى من منظور آخر . النفس ومواجهة الزيف ،والتطابق المذهل بين الفكر والعمل ، وباعتبارها أيضا تجسيدا حقيقيا للانحياز للحق والتماهى بين الإنسان وقناعاته ،هى حالة نادرة من الصفاء الروحى والذهنى يصعب تكرارها ،ومن النادر أن يلتقيها المرء فى حياته الحاضرة

تعود معرفتى بسهام صبرى إلى أوائل سبعينيات القرن الماضى فقد بدأت التعرف على واقع كلية الهندسة جامعة القاهرة ، والاحتكاك بالناشطين فيها آنذاك .

الثقافية ،وتحكمها ضوابط صارمة لا يمكن الخروج عليها ،وتراقبها عيون أمن الدولة والحرس الجامعى ،برغم كل ذلك كانت تتطور بطريقة إيجابية خاصة فى ظل الدور الإيجابى الداعم الذى لعبه بعض الزملاء الأكبر سنا مثل "علاء بكيش "و"خالد مندور"فى احتضان جيلنا ودعمه وتطوير وعيه ،ومساعدته فى حركته .

وبدأتْ على استحياء ظاهرة صارت فيما بعد علامة على الوعى الطلابى الجديد ، ظاهرة صحف الحائط التى حولت الجامعة إلى منبر للتعبير الحر عنْ الرأى ، كما نبعت من بين صفوف الطلاب داخل كلية الهندسة وخارجها جماعات فكرية سياسية حملت أسماء وطنية ذات دلالة :"عبدالحكم الجراحى ""عبدالله النديم " . . .إلخ لكن التحول الحاسم فى كليتنا - كلية الهندسة جامعة القاهرة - جاء مصاحبا لتكوين "جماعة أنصار الثورة الفلسطينية"التى بادر بالدعوة لها زملاء كانوا قد عادوا من زيارة للأردن واكبت فجائع مجازر سبتمبر (أيلول الأسود)التى مارستها قوات الملك حسين فى مواجهة شعب فلسطين وطلائعه الفدائية .

كان من أبرز هؤلاء الزملاء الزميلان منير مجاهد و أحمد هشام والزميل المرحوم عبدالعزيز شفيق الذين سعوا ونحن معهم لتأسيس جماعة كان لها موقع مهم للغاية فيما بعد أسميت "جماعة أنصار الثورة الفلسطينية" التى لعبت واحداً من أبرز الأدوار فى تصعيد وتطوير العمل الطلابى فى كلية الهندسة وفى الجامعة أيضا .

فى "جماعة أنصار الثورة الفلسطينية"التقى عدد كبير من نشطاء

العمل الوطنى والديمقراطى فى الكلية ،فيها اكتسبت هذه العناصر الشابة خبرات ثمينة للغاية فى العمل الفكرى والسياسى، وعلى كل المستويات أذكر منهم طلعت فهمى وكمال خليل، شاكر عرفة، إبراهيم عزام، والمرحوم حلمى المصرى، عماد عطية، ورياض رفعت، والمرحوم ماجد إدريس وحسن بدر وفاتن عبدالمنعم، ومصطفى الخطيب وإبراهيم عبدالراضى، وعشرات غيرهم لا تحضرنى أسماؤهم الآن، وقد اكتسبوا جميعا باحتدام معارك النضال اليومى ملامح الزعامة، وسمات القيادة الطلابية مع تعاظم خبراتهم وتطور ملكاتهم.

لكن مشاركة سهام صبرى شيء آخر تماما .فمنذ الوهلة الأولى لطلتها المهيبة كانت تمتلك حضورا طاغيا عز نظيره ،ومواهب قيادية طبعية لا اصطناع فيها ولا افتعال ،فتكوينها الجسمانى القوى الفارع المتماسك، وملامحها التى تختلط فيها الملاحة بالنبل وجرأتها وروحها المقدامة ،وقدرتها العلمية والثقافية ،كل ذلك دفعها مرة واحدة إلى مصاف القيادات الطبعية ،كأنها ولدت لكى تكون قائدة وخلقت للزعامة .

كان وجود سهام صبرى بيننا مكسبا هائلا لأفكارنا، وإضافة نوعية لقدراتنا، وتعزيزا كبيرا للكفاءة فى العمل والإنجاز، وكان اشتراكها فى أى مظهر من مظاهر حركاتنا : مؤتمر سياسى أو ندوة فكرية أو مظاهرة حاشدة أو مناقشة أمام صحف الحائط أو غير ذلك من الأنشطة دعما كبيرا لعملنا نظرا لما تميزت به من حضور

من الأنشطة دعما كبيرا لعملنا نظرا لما تميزت به من حضور شخصى ووعى حاد وقدرة على عرض الأفكار ببساطة وعمق معًا ،وعلى الرغم من المنبت البرجوازى لسهام فقد بدت جزءاً عضويًا من الإيقاع العام للمجموعة اليسارية بالكلية ،والتى كانت تدافع عن مصالح فقراء الوطن وتنحاز لمطالب أغلبية أبناء الشعب من الطبقات الكادحة ،وزاد على ذلك أن سهام فى ظل تصاعد الخلافات الفكرية مع أسرتها ،آثرت ترك منزل العائلة والاعتماد على الذات فى تدبير احتياجاتها ومصاريف دراستها ، وأذكر أنها كانت تمارس تدريس اللغات والرياضيات ،وهى مواد كانت تتقنها من أجل تحقيق هذه الغاية ،كان هذا الأمر يوفر الحد الأدنى لتغطية تكاليف العيش المتواضع ،لكنى لم أرها قط وفى ظل هذه الظروف الصعبة تتشكى من اختلاف ظروف المعيشة أو من معاناتها فى حياتها المكافحة الجديدة ،بل زادتها هذه الظروف عنادا ، وقدرت أنها بهذا الموقف الجديد كانت تنحاز بالفعل إلى ما تؤمن به من أفكار ومعتقدات ، خاصة فى ظل ارتباطها بزميل فنان ، بالغ الرقة والدماثة ، هو محمد توفيق ،حيث تزوجا وعاشا معا فترة من الزمن فى ظروف بالغة الصعوبة .

زاملت إذن سهام فى أيام عصيبة حينما بلغ التوتر فى الجامعة مداه ،فى حالة الهزيمة التى أعقبت احتلال الدولة الصهيونية سيناء بالكامل قد أفرزت فى المقابل وعيا شبابيا عارما بضرورة إعداد الوطن لخوض معركة تحرير الأرض المحتلة ،والسلطة -وخصوصا بعد

انفراد أنور السادات عقب أحداث ١٥ مايو ١٩٧١ بمقاليد الأمور - كانت تماطل فى إعلان الحرب ،وتتذرع بذرائع واهية للتملص من وعودها بالقتال ، (من نوع ضباب الحرب الهندية الباكستانية الذى دفع النظام الى تأجيل المعركة)وكانت الحركة الطلابية لدواع عديدة أكثر فئات المجتمع استجابة وحساسية ، واستطاعت التطورات فى الجامعة وداخل القطاعات العمالية -بعد ١٩٦٧-أن تزلزل الأرض من تحت أقدام النظام ،وأن تطرح مقاربات عديدة جديدة للأوضاع فى البلاد ، وتسارعت وتيرة الأحداث حتى لم يعد لأى قوة قدرة على لجمها أو السيطرة على اندفاعها ،وفى تلك اللحظات الحرجة كانت سهام صبرى بطلة حقيقية فى بساطة وتلقائية وتواضع ،لم تخذلنا مرة أو تفر من المعركة مهما كانت التحديات ،وبعينى هاتين شاهدتها فى عشرات المواقف الحاسمة أصلب ما يكون المرء وأشجع مايمكن ،كانت تدلى بآرائها فى الاجتماعات ،وتخطب فى المؤتمرات الحاشدة ،وتساهم فى قيادة الجموع المنتفضة ،وتشق الصفوف فى مقدمة الآلاف من الطلاب زحفا إلى الأمام ،كما شاهدتها وهى تتعرض للاعتداء ،وترزح فى القيود والأغلال ،محاطة بالجنود السود ،دون أن يهتز لها جفن أو يتسلل الخوف إلى نفسها أو تتراجع قيد أنملة عن يقينها .

وتشير إجاباتها على أسئلة المحقق(وكيل النيابة صهيب حافظ ،النائب العام فيما بعد)الذى تولى استجوابها فى المعتقل بعد حملة اعتقالات ديسمبر عام ١٩٧٢ ،إلى ملامح تفكير سهام

تفوق بكثير عمرها الزمنى وخبراتها السياسية العلمية آنذاك ،فهى تعلن بوضوح أمام المحققين مواقفها ،ولا تتنكر لها أو تتراجع عنها ،رغم ظروف الاعتقال العصيبة وحملات الترويع والتشويه المتعمدة التى قادتها أجهزة إعلام على الكذب والاختلاق والتضليل ،وتقدم سهام برغم حداثة ممارستها السياسية المباشرة تحليلا عميقا نافذا لتوجيهات النظام الحاكم وقتئذ"الذى يريد تمرير حل سلمى متهادن مع أمريكا لمشكلة الشرق الأوسط -كما تشير سهام صبرى -أن تعادى الجماهير وتقمعهم بشتى الوسائل"كما كانت ترى فى تلك الآونة -ليس إسقاط السلطة ،وإنما فضحها دائما ، ومحاولة تنظيم الحركة (الديمقراطية) بشتى الوسائل خوفا من أن تلجأ السلطة لإجهاض الحركة ،عن طريق رفع شعارات متقدمة عن المرحلة يتبناها الطلبة العملاء .

إن تحقيق غاية "تنظيم الحركة"يقتضى من وجهة نظر سهام صبرى ،الخروج من حالة العفوية التى تكون مجرد رد فعل وتنظيمها بشكل متصاعد فى عمل جدى طويل النفس . .وتحذر من طلبنة الصراع داخل الجامعة ،بعد أن بدأت أجهزة الأمن بتنظيم وتسليح القوى المضادة من الطلاب ،عملا بمبدأ لا يفل الحديد إلا الحديد حيث لجأت السلطة - كما تذكر سهام صبرى فى التحقيقات - "للإرهاب"ول"طلبنة الصراع"بتسليح الطلاب (التابعين للنظام)لضرب الطلبة الديمقراطيين بالمطاوى ،واتهامهم بالشيوعية بعد أن فقدت السلطة القدرة على الحوار وتبرير نفسها . .حيث لا

تتدخل السلطة بشكل سافر ومكشوف (إذا فشل هذا الأمر تماما) وإنما يتحول الصراع بدلا من أن يكون بين الطلبة الوطنيين والسلطة إلى صراع بين الطلبة أنفسهم ،وعندما تتدخل السلطة تبدو محايدة وتقوم بتصفية الحياه السياسية فى الجامعة بدعوى حفظ النظام .

وتبلغ سهام صبرى درجة عالية من الجرأة والشجاعة حين يسألها المحقق عما إذا كانت قد صدر عنها خلال نشاطها بالكلية أية كتابات أو أقوال تتضمن انتقاد أسلوب الحكم القائم أو الهجوم عليه ؟حيث أجابت بنعم قاطعة :"وفى كل المقالات التى أكتبها أو أقولها فى المؤتمرات هاجمت أسلوب قمع الديمقراطية والسعى إلى الحل السلمى المتهادن مع أمريكا بكافة أشكالها "

وفى واقع الأمر فحين نستعيد للذاكرة أن قائلة هذه الكلمات الشجاعة كانت تنطق بها تحت وطأة الاعتقال وإرهاب أجهزة الأمن القمعية ،وفى ظل التشهير الذى لم ينقطع لأجهزة "البروباجندا"الرسمية بقيادة رئيس الدولة ذاته ،ومن فتاة لا يتعدى عمرها عشرين ربيعا .ليأخذنا العجب من هذه التركيبة النضالية الفذة والوعى والإدراك العميق والصلابة التى تميزت بها سهام صبرى وأبناء جيلها من زملائها .

مواقف لا تنسى

وأذكر ذات يوم من أيام شهر يناير عام ١٩٧٢ يوم ١٢ أو ١٣ على الأرجح ، حينما تصاعد الموقف فى الكلية ،وتقرر عقد مؤتمر حاشد لتحديد الموقف من الأحداث بعدما أعلن الرئيس السادات "خطاب

لتحديد الموقف من الأحداث بعدما أعلن الرئيس السادات "خطاب الضباب"الشهير .عقد المؤتمر بمدرج "الساوى"الشهير وشاركت فى تنظيمه وإدارته واحتشد الطلاب فى كل مكان بالمدرج حتى لم يعد هناك موقع لقدم،وحضر ممثلا عن الدولة الدكتور أحمد كمال أبو المجد وكان وزيرا للشباب آنذاك،وتولى الرد على سيل التساؤلات المنهمر من الطلاب دون أن يفلح فى إقناعهم أو تقديم مبررات منطقية لموقف النظام وتصاعد التوتر حتى بلغ غايته حينما أعلن أبو المجد أنه ليس سوى "بوسطجي" أو حامل البريد مهمته المحددة نقل تساؤلات الطلاب للسيد الرئيس والعودة منه بما يتفضل به من إجابات حينذاك زام الجميع من الغضب،وارتفعت صيحات الاحتجاج على وزير الشباب يفضح نظامه باعترافه أنه لا يملك على أسئلة الشباب ردا سوى ما يلقنه إياه رئيس الجمهورية،وفى لحظات تصاعد صوت سهام صبرى حاسما الموقف ومعبرا عن رأى الجميع إذ صاحت به قائلة "إذا كنت وأنت وزير تعترف بأنك مجردبوسطجى لرئيس الجمهورية فاذهب وأخبره أننا لن نتحرك من هنا إلا إذا حضر هو بشخصه للإجابة على تساؤلاتنا"

وقد كان هذا الرد القاطع إعلانا لنهاية المؤتمر والفشل فى إقناع الطلاب بوجهة نظر المسئولين،وهو الأمر الذى تصاعد لكى يؤدى إلى اعتصام طلاب كلية الهندسة قبل أن ينقل الاعتصام إلى مقر قاعة المؤتمرات الشهيرة ويرج مصر رجا على النحو المعروف للجميع.

وموقف آخر لا أنساه لسهام صبرى حين تطلبت ظروف الاحتدام وتواتر الأحداث آنذا أن يتفاوض وفد من طلاب الكلية مع أمين التنظيم السياسي (الاتحاد الاشتراكى العربى) المهندس سيد مرعى الإقطاعى الكبير وصهر الرئيس السادات وأحد صناع السياسة الرسمية على قمة النظام الساداتى فى تلك الآونة .

وذهبنا وفدا منتخبا لكى يمثل الطلاب فى كلية الهندسة ، مجموعة من الشباب أكبرنا لا يتعدى عمره العقدين إلا بسنة أو بسنتين لنواجه قيادات الدولة التى كانت تقف على ساق وفى ظل حصار أمنى هائل اصطف الطلاب بالمئات حول مبنى الاتحاد الاشتراكى بكورنيش النيل ينتظرون عودتنا ، وبالآلاف فى الكلية والجامعة ، إن حدث لنا سوء على أهبة الاستعداد للتدخل .

دخلنا إلى قاعة الاجتماع وعلى الطاولة جلسنا محاطين بعدسات المصورين وبعد دقائق انفض الجمع ،وخرج الحشد بإشارة من سيد مرعى الذى جلس إلينا مستمعا ومحاورا .

كانت أول مرة - فى حياتى - أرى رمزا للسلطة على هذه الحالة ، حيث كان أمين جهاز الدولة السياسى فى حالة من الارتباك يصعب وصفها ، شاحب الوجه ، مرتعشا ، مزرق اللون ، أصابعه ترتجف ، وتخونه نبرات صوته ، يتصبب عرقا ، - ولم تفلح أناقته البادية بكوفيته الحريرية الكحلية حول رقبته - ولا الابتسامة المسروقة المضطربة التى حاول رسمها على وجهه فى تبديد ملامح القلق العميق والتشتت الذهنى الذى ألمّ به من جراء الانفجار فى

الجامعة ،والعجز عن السيطرة على الوضع ، أو تقديم تفسير مقنع لسلوك النظام يقود الأمور- فى الجامعة -إلى التهدئة ، لقد بدا السيد مرعى عاجزا عن "التجميع" أو التعبير عن وجهة نظره أو ربما لم تكن هناك -بالفعل -وجهة نظر ليعبر عنها ،ومن الطريف أننا قد شعرنا ونحن بضعة طلاب لاحول ولاقوة لنا اللهم إلا قوة الحركة الطلابية التى كانت تنتشر فى الجامعة انتشار النار فى الهشيم والتعاطف الجماهيرى الواسع النطاق حولها ،أننا كنا فى الموقع الأقوى والأكثر سيطرة وتأثيرا ،ولم يخامرنا أدنى رهبة من هيبة السلطة ولا هيلمانها حيث تصرفنا بتلقائية ووعى وصلابة وبساطة متناهية .

كنا نتكلم عن قضية حقيقية نؤمن بها ،ونشعر أننا نواجه سلطة مزيفة لا نخشاها ومضت دقائق قليلة قبل أن ينفجر الموقف المتوتر بعد لحظات من الصمت المشحون كنت أجلس أمام سيد مرعى وبجوارى عدد من الزملاء بينهم سهام صبرى والمرحوم ماجد إدريس ،وانطلقت عواصف غضبنا حيث سمع سيد مرعى ما لم يسمعه من قبل ولا من بعد يقينا حتى رحل عن عالمنا !حاكمناه وحاكمنا نظامه ،وانهلنا عليه بالاستفسارات والأسئلة والاتهامات التى عجز كليا عن الإجابة عنها ، وبدا موقفه بائسا ومحزنا ،حيث أخذ يتصبب عرقا وجهه القمحى الغامق يتلون مصفرا أو محمرا وهو عاجز عن ملاحقة المدافع الطلابية سريعة الطلقات ،التى حاصرته بعشرات الوقائع عن الفساد والتراخى وإهمال مطالب

الشعب والتسويف والمماطلة والمساومة والاستعداد للتفريط فى مصالح الوطن ....الخ .

وإن أنسى فى حياتى لا أنسى أبدا حديث المرحومين "ماجد إدريس وسهام صبرى"الذى أنهيا به اللقاء،كان ممتلئا بالسخرية والاستهزاء بكلام أحد أكبر المسئولين فى الدولة الذى تهتز له الدنيا وترتج له الوصال .وانفض الاجتماع بعد أن تلاقت نظراتنا إشفاقا ورثاء،وإدراكا أنه لن يستطيع أن يقدم شيئا . .كانت آخر جملة من سهام صبرى ترن فى مسمعى تعليقا على محاولات سيد مرعى تفسير مواقف الدولة والسادات "إيه الكلام الفارغ دا !!!"ونحن فى عرض الطريق ننزل إلى زملائنا الذين أخذونا فى أحضانهم مهنئين ب"سلامة العودة "بينما هتافاتهم تدوى رغم جحافل قوات الأمن المحيطة "سيد مرعى دا يبقى مين يبقى حرامى الفلاحين !!"وحتى بعد أن اقتحمت قوات الأمن المركزى مبنى الجامعة وفضت اعتصامنا (فجر يوم ٢٤ يناير ١٩٧٢)بالقوة،واعتقلت المئات ونقلتنا إلى معسكرات الأمن المركزى بالدراسة قبل أن ترحل أعضاء "اللجنة الوطنية العليا للطلاب"وأنا بينهم، إلى معتقل القلعة الرهيب،لم تتراجع سهام صبرى عن مواقفها البطولية،ظلت صامدة فى محبسها الذى كتب من وحيه أحمد فؤاد نجم "أنا رحت القلعة"ولحنها وغناها فنان الشعب الشيخ إمام عيسى وفيها يتحدث عن سهام فيقول :

"وقابلت سهام ف كلام إنسان

منقوش ومأثر ف الجدران
عن مصر وعن عمال حلوان
مظاليم العهد المعتقلين
عيطى يا بهية على القوانين !"

وحين أطلق سراحنا وسراحها ،بضغط عارم من القاعدة الطلابية وجماهير الشعب والمثقفين ،عادت سهام لكى تمارس نشاطها بقوة واقتدار كعهدنا بها ،لم يهز الاعتقال يقينها أو تخيفها أو يجعلها تتراجع عن مواقفها ،رغم عمليات التحرش العدوانى المستمر من أجهزة الدولة بها وبنا . .والتى بلغت ذروتها عقب تأسيس أجهزة الأمن لما أصبح يعرف ب"الجماعة الإسلامية "بكلية الهندسة جامعة القاهرة وبكليات الجامعة وجامعات ومعاهد مصر ،كذلك ضمت هذه الجماعات بالكليات المختلفة بعض الأفراد من الطلاب العاديين، ولكن أجهزة الأمن دست فيها أيضا أنواعا من الطلبة من الراسبين الدائمين الذين يطلقون على أنفسهم اسم "قدامى الطلبة"تهكما وكذلك أعدادا من مرتزقة الأنشطة المتحلقين حول رعاية الشباب والمستفيدين من ميزانياتها ،مع عملاء أجهزة الأمن بالجامعات ، ليمارسوا أنواعا من البلطجة ضد الحركات الطلابية الوطنية ، وأصبح لهم دور واضح بعد انتفاضة ١٩٦٨ ، وحسبما تسرب فيما بعد فلقد أنشئت هذه الجماعات باقتراح من عثمان أحمد عثمان صهر السادات ووزير الإسكان والتعمير ونائب رئيس الوزراء آنذاك ، وأحد الشخصيات القوية فى النظام ،والذى احتضن التيارات

الإسلامية (كبار وبالذات كوادر جماعة الاخوان المسلمين) عقب الإفراج عنهم فى الصفقة الشهيرة مع أنور السادات لمواجهة المد اليسارى الماركسى والناصرى فى الجامعة والمجتمع، وبعد انفراد السادات بالسلطة عام ١٩٧١ وكما هو معروف فلقد لعب محافظ أسيوط وأمين لجنة التنظيم بالاتحاد الاشتراكى محمد عثمان إسماعيل دورا بارزا فى إنشاء ورعاية الجماعات المتسترة بالإسلام فى الجامعة على أمل أن تتولى هذه الجماعات تصفية اليسار فى الجامعة بعدما عجزت أجهزة الأمن ومؤسسات النظام عن إنجاز هذه المهمة التي اعتبرت مهمة ذات أولوية مطلقة فى تلك الآونة، وقد فضح أحد طلاب كلية الهندسة جامعة القاهرة والمدعو وائل عثمان وهو من المؤسسين لهذه الجماعة، والمشاركين لفترة فى أنشطتها بالكلية والجامعة فى كتابين شهيرين (حزب الله فى مواجهة حزب الشيطان - آراء حرة) كيفية تأسيس هذه الجماعات ودورها وطبيعة علاقتها بأجهزة الأمن ومؤسسات النظام والدور المرسوم لها فى مواجهتنا .

وفى أحد الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر ١٩٧٢ (وكنا قد أفرج عنا مرة أخرى بعد حملة اعتقالات ٢٩ ديسمبر ١٩٧٢ لإجهاض محاولاتنا لتشكيل "لجان الدفاع عن الديمقراطية" بالجامعة) بلغت اعتداءات هذه الجماعة على أنشطة "جماعة أنصار الثورة الفلسطينية" ذروة غير مسبوقة حين اقتحمت عناصرها المدججة بالعصى وأسياخ الحديد مؤتمرا حاشدا فشلت فى منعه من الانعقاد، وانهالت علينا وعلى الطلاب الحضور ضربا تحت مسمع ومرأى من

أجهزة الأمن وإدارة الكلية التى غضت البصر عن مسلكيات هذه الجماعة الإرهابية (الرسمية) وساعدتها فى أداء واجبها وقد فشلت هذه الهجمة فى تحقيق غايتها، بل عادت بنتيجة عكسية.

حين انتهى المؤتمر بموقف قوى مؤيد لمطالبنا وحيث خرجت من المدرج الذى شهد وقائع المؤتمر والاعتداء علينا بعد أن صغنا توصياته والبيان الصادر عنه وبعد أن ضمدنا جراح بعض زملائنا المصابين، لمحت سهام صبرى فى باحة الكلية قرب مواقع تعليق صحف الحائط الشهيرة وقد تجمع حولها نفر من هؤلاء الحاقدين الموتورين، يصفعونها بعنف ويضربونها، بل، وهى تقاوم صامدة ببسالة عدوان ٧ أو ٨ وحوش آدمية مدفوعة ومحمية دون أن تهرب من المواجهة أو تطلب الرحمة من جلاديها . .لكنها تحملت فى صبر وجلد كبيرين ما نالها من أذى مدفوعة بفكرة بالغة الذكاء مفاداها أن تتحمل ما يقع عليها من اعتداء أمام باقى زملاء الكلية حتى تكشف للطلاب العاديين المحايدين من هو الطرف المعتدى عليه وحتى لا تمنح عناصر "الجماعة الإسلامية" المدفوعة من الأمن، الفرصة لتحقيق أغراضها الدنيئة. رغم ذلك فحين لمحتها فى هذا الموقف العصيب جريت إليها وألقيت بنفسى دون أدنى تقدير لعواقب هذا السلوك التلقائى بينها وبين المعتدين، لأحول بينهم وبينها فنالنى ما نالنى من ضربات حتى صاح صائحهم فتوقفوا .كان عدلى مصطفى أميرا للجماعة الذى طلب منى بصوت جهورى الابتعاد لأنه على حد قوله يحترمنى ولا يريد أن يؤذينى بل هو يريد فقط بنت "....."هذه.

فلم يكن واردا أن يغفروا لفتاة جامعية أن تشارك فى قيادة العمل السياسى وحسب وإنما أن تفعل ذلك من مواقع اليسار بالتحديد فهذه هى الطامة الكبرى فلما رفضت الانصياع له وجادلته مرت بضع دقائق كانت كافية لكى يهل علينا جمع من زملائنا لمحهم المعتدون فهربوا وهم يتوعدوننا ،وقامت سهام وهى تلملم حاجياتها وتنفض عن ثيابها آثار العدوان ،وفى ذلك اليوم وبعد دقائق محدودة خرجت إلى الشارع أمام الكلية فى طريقى لعبوره باتجاه الحرم الجامعى حيث كان موعدا لاجتماع الكوادر الديمقراطية بالجامعة .وما كدت أقطع نهر الطريق حتى فوجئت بمجموعة أخرى من البلطجية ومن عناصر الأمن المركزى ،التى ترتدى زيا رياضيا مدنيا ،تحيط بى من كل جانب كتل بشرية ممسوحة الملامح كارهة التقاطيع أحاطوا بى ومارسوا فى جسدى هواياتهم الهمجية ، وتركونى مضرجا فى دمائى وفروا كالجرذان هاربين.

لم أفق إلا ليلا ووجدت نفسى محاطا بوجوه العديد من الزملاء والزميلات الذين أخذوا يهنئوننى بالسلامة ،كنت قد فقدت الوعى تحت وطأة الضربات العنيفة المفاجئة وحين هرع زملائى لنجدتى وجدونى على هذا الحال فتم نقلى إلى مستشفى قصر العينى حيث كشف على الأطباء خائفين من تعرضى لارتجاج فى المخ من جراء الضربات المكثفة على الدماغ لكن الله سلم.

استمرت علاقة الزمالة الحميمة بسهام صبرى طوال سنوات النصف الأول من السبعينيات حتى وقائع ١٨ و١٩ يناير عام

١٩٧٧ ،كان زواجها بزميلنا توفيق ابن الأسرة الفلاحية البسيطة قد اعترضته مشاكل الحياة اليومية والظروف الاقتصادية الصعبة وضغوط المجتمع الذى كره أن يفسح مجالا فى صدارته لهذه الإنسانة النبيلة الواعية المناضلة المعطاءة ،والتى دفعت ثمنا غاليا لما آمنت به واعتقدت فيه ولم تتراجع عن مبادئها رغم المكاره وعظم التكاليف ، ووقع الانفصال بين الإنسانين الرائعين سهام صبرى ومحمد توفيق ،وانتهى ذلك الزواج الرومانسى الذى كان يليق بأفكارنا وتحدياتنا ،حتى ولو لم يستمر ،ورحل محمد توفيق بعد سنوات إلى باريس حيث تزوج من سيدة فرنسية أقام معها فى قرية صغيرة بالجنوب الفرنسى وأنجب منها واستقر به المقام حتى الآن هناك ،وقد زرته عام ١٩٨٢ وعشت معه ساعات مشحونة بالعاطفة والدفء قبل أن أرحل والدمع فى عيونى ،مسكونا بهواجس ثقيلة أنى أودع مرحلة من أجمل مراحل عمرى ،وأنى لن أرى توفيق الرائع مرة أخرى . . .وهو ما حدث حتى الآن .

أما سهام فقد تقلبت بها الأحوال والدروب ،وقذفتها حوادث الزمن من مكان إلى مكان ، والتقينا مرة أو مرتين على امتداد العقدين الأخيرين وتواعدنا على الاتصال والتحادث . .وقد منحتها أرقام تليفوناتى وانتظرت ،وللأسف الشديد لم يتم اللقاء .

والآن نحتفى بقيم خالدة من قيم الوطنية نقدمها لأبناء مصر من الأجيال الذين يفتقدون القدوة ،ويتلفتون بحثا عن نموذج للاقتداء .

فى زمن الساد والخيانات وضياع الأمل والنهب المنظم لثروات

وتاريخ الوطن ،تمثل سهام صبرى ونظراؤها من شهداء الحركة الوطنية والديمقراطية المصرية منذ فجرها المشرق حتى الآن منارات لن ينطفئ إشعاعها ،وأوسمة على صدر بلادنا تمنحها القيمة والرفعة ،وتثير فى أعطافنا الحماسة وقيم العطاء والبذل من أجل الشعب والوطن .

ولسهام صبرى فى نهاية المطاف ،الراحلة الباقية أحنى هامتى احتراما لذكرى الأخت الرفيقة المناضلة والزميلة الباسلة ، وأتشرف أننى عرفتها عن قرب ،وعاصرتها ،وأعجبت بها . .إنسانة ومناضلة ، وأشهد لها وبها أن مصر لم تعقم يوما وإن الوطن القادر على منحنا مثل سهام صبرى مقدر له ألا يموت أبدا .

٤٨ ساعة هزّت مصر !
رؤية شاهد عيان
لحركة موقع من مواقع الأحداث
خلال وقائع الانتفاضة الشعبية
١٨ و ١٩ يناير

جرى الأمر على هذه الشاكلة !

اليوم السابق على انفجار البركان، شهد آخر ماكانت الجماهير المصرية تتوقعه أو كانت مُهيأة لاستقباله ! .

بل على النقيض من ذلك تماما .. فعلى امتداد السنوات التى مهدت لهذا الحدث الضخم، وبالذات طوال السنوات التى تلت حرب أكتوبر ١٩٧٣، حتى عام ١٩٧٧، تم وبإلحاح لا مزيد عليه، الترويج لسلسلة مترابطة من الأوهام والأكاذيب، حول الرخاء الذى سينهمر فوق الرؤوس بلا حدود أو حساب !، والتوقعات الهائلة المبهرة، عن وعود المستقبل التى لا أساس موضوعى لها، ولا إمكانية فعلية لتحقيقها، بهدف تبرير التراجع عن الخط الوطنى والقومى

السابق، والانقلاب على الخيارات الاستراتيجية التحررية الماضية، وتسويغ السعي الحثيث للصلح المنفرد، المجحف، مع العدو الصهيوني، العدو التاريخي للوطن، والارتماء في أحضان الراعي الرسمي، والشريك الرئيسي له في عدوانه واغتصابه .. الولايات المتحدة الأمريكية!.

ولم تتورع السلطة، في هذا السياق، عن اللجوء إلى أسوأ أنواع الخداع والتزييف، حينما سرّبت الأخبار"المفبركة"، وقت زيارة الرئيس الأمريكي الأسبق "ريتشارد نيكسون" لمصر، عن السفن الأمريكية المزعومة، التي تحركت باتجاه الموانيء المصرية، محملةً بما لذّ وطاب من الأطعمة والمعونات!، وفي خطب عديدة للرئيس"السادات"، كان كثيراً ما يتردد على لسانه وعوده الوهمية بأن يمتلك كل مصري، وفي القريب العاجل: "عربية، وفيللا بها ماء ساخن وماء بارد .. كمان!"..

ولذلك كان لوقائع جلسة "مجلس الوزراء" التي أذاعت السلطة نتائجها، على صفحات جرائدها الرئيسية، وعبر موجات الإذاعة وشاشات التلفزيون، يوم ١٧ يناير ١٩٧٧، وقع الصاعقة، على أعصاب الجماهير الملتهبة، التي تصاعدت معاناتها، بعد أن تحمّلت وحدها عبء الهزيمة وتكاليف إعادة بناء القوات المسلحة، وإعداد البلاد للمعركة، وبما أوصلها إلى حدود عدم القدرة على احتمال المزيد، وكانت تمني الروح بالانعتاق من حياة البؤس والفاقة، فألفت نفسها مدفوعة، بقوة جهنمية، إلى أعماق "ثقب أسود"

جديد، يلتهم ما تبقى من الفتات، التى تواجه به غول الأسعار والتضخم، وانفتاح "السداح مداح"، وسياسات السوق، و"الخصخصة"، القاتلة!.

وقد جاءت هذه القرارات تطبيقًا عمليًا مباشر للفلسفة الاقتصادية التى انتهجها النظام بعد تولى السادات السلطة، والتى أطلق عليها سياسة "الانفتاح الاقتصادى"، ومضمونها المؤكد تخلى الدولة - بالتدريج - عن مسئوليتها الاجتماعية تجاه الفقراء ومحدودى الدخل فى مصر، وتسليم كل مجالات الاستثمار فى البلاد، وكل مصادر ثروتها، للرأسمال (المحلي والإقليمى والدولى)، ودمج الاقتصاد المصرى فى منظومة الاقتصاد الرأسمالى الدولى، من موقع التابع، وتقليص دور الإنتاج فى العملية الاقتصادية، والتنصل من دور الدولة الاجتماعى تجاه الطبقات الفقيرة والمحرومة، وإطلاق الحرية للسوق ... إلخ.

وكانت بواكير هذا التوجه، قد برزت فور انقضاء بضعة شهور من "اغتيال" حرب أكتوبر ١٩٧٣، حتى "قبل أن تسكت المدافع"، حيث تم إهدار كافة التضحيات العظيمة التى وهبها المصريون دون حساب، ولتصب نتائجها لصالح الطبقة الحاكمة (ائتلاف البيروقراطية فى السلطة والثروة خارجها)، وتحالفاتهما المعادية للطبقات الشعبية، الأمر الذى تجسّد بصدور قوانين استثمار رأس المال العربى والأجنبى، عام ١٩٧٤، ومجموعة القوانين التى أعقبتها، والتى استهدفت فتح أبواب مصر على مصراعيها، أمام رأس المال

العربى والأجنبى، والمصحوبة بضمانات بالحصانة ضد التأميم، أو مشاركة العمال فى الإدارة، أو الأرباح، والإعفاء من الالتزام بالقوانين المصرية الخاصة بالتعاملات النقدية والاستيراد، والإعفاءات الضريبية، والتحرر من حقوق العمال والعاملين ... إلخ!

وكان طبعيًا أن تنعكس هذه السياسات على حياة الناس، على حياة الأغلبية العظمى من المواطنين الفقراء ومحدودى الدخل، فى مزيد من المعاناة والتخلف، وفى تراجع مستوى المعيشة وتزايد معدلات البطالة وتآكل القدرة الشرائية، والإحساس بتفاقم الفروق الطبقية، والعجز عن توفير الحد الأدنى الضرورى من متطلبات المعيشة، وهو ما عكسته بوضوح شعارات الانتفاضة، التى حملت هموم الطبقات الفقيرة والشعبية، واستياءها من الظلم والإجحاف الواقعين عليها!.

لكن هذا وحده لم يكن فقط الدافع لتفجر الانتفاضة، فقد كان هناك أيضًا حلم الحرية، وحلم الانعتاق من العسف والاستبداد والجور والقهر، والسعى لطلب المساواة الإنسانية، والعدل، وتأسيس مجتمع الحق والإنصاف .. فاستمرار القمع والاضطهاد الذى يتعرض له الشعب المصرى من الطغاة الحاكمين، "مرر" وجودهم، وأضاع بهجة الحياة: "عايزين حكومة حرة ... دى العيشة صبحت مُرّة!".

وكذلك كان حلم استعادة الكرامة الوطنية والعِزّة القومية، هو أحد محفزات هذه الانتفاضة، بعد أن استشعر المواطنون تآكل وإهدار السيادة الوطنية، وتبدد النتائج الإيجابية لتضحيات حرب

العبور المجيد، والمخاطر الضخمة المترتبة على انتهاج سياسة "٩٩٪ من أوراق اللعبة فى يد أمريكا !" .

وكانت هتافات المظاهرات تربط، بوعى حاد، بين "الصهيونى" الذى يمارس القهر باحتلال التراب الوطنى، و"المخبر" الذى يمارس القهر باقتحام الباب ويقوم باختطاف الأبرياء .. إنهما وجهان لعملة واحدة، ولا مجال لتصور العلاقة بينهما (الصهيونى والمخبر)، إلاّ على هذا النحو !، وأيضًا فلا سبيل لتصور التحرر من أحدهما دون التحرر من الآخر، أو خوض المعركة ضد أفكاره وسياساته !.

وبعد أن تم تمهيد الأرضية بهذا "القصف الاستراتيجى"، بدأ النظام فى شن هجومه الكاسح على قواعد "الأعداء"، متصوراً أن الوقت مهيأ للضربة الكبرى والخطوة الحاسمة، فى جلسة مجلس الوزراء، التى تحدد لها يوم ١٦ يناير ١٩٧٧، وحضرها "ممدوح سالم" رئيس مجلس الوزراء.

ففى تلك الجلسة "التاريخية"، أعلن "د. عبد المنعم القيسونى"، نائب رئيس الوزراء للشئون المالية والاقتصادية، ورئيس ما كان يُسمّى "المجموعة الاقتصادية"، التى ضمّت إلى جانبه كلاً من "د. حامد السايح" وزير الاستثمار، و"د. زكى شافعى" وزير الاقتصاد، فضلاً عن وزيرى التخطيط والمالية، القرارات التى حملت إلى الملايين الأنباء الكارثية: إلغاء الدعم الحكومى، ورفع أسعار خمساً وعشرين سلعة أساسية، دفعة واحدة !.

وجاءت هذه القرارات استجابة مباشرة لتعليمات البنك الدولى، عبر ممثله فى مصر، "بول ديكى"، التى أوردها فى مذكرته المعنونة: "بعض الأفكار حول مسألة الانفتاح الاقتصادى"، وفيها طالب "ديكى" السلطات المصرية باتخاذ "بعض الإجراءات الحازمة، ومن ضمنها تخفيض سعر الجنيه المصرى، إلى جانب رفع، أو تخفيض، الدعم على السلع الضرورية، التى كانت الحكومة، لسنوات طويلة، تقوم بدعمها لصالح سواد الشعب"، (بين هذه السلع الخبز والسكروالوقود، وبعض أنواع الأقمشة الشعبية".

وتضمنت "قرارات ١٧ يناير ١٩٧٧" استجابة كاملة لـ "توصيات" البنك الدولى، وفى مقدمتها:

إلغاء دعم السلع الأساسية مثل الدقيق والذرة والسمسم والحلاوة الطحينية واللحوم المذبوحة والشاى والأرز والمنسوجات والملبوسات.

زيادة أسعار بعض السلع الأخرى، مثل السجائر البنزين والبوتاجاز والسكر، زيادة مباشرة.

زيادة رسوم الدمغة، والرسوم الجمركية، ورسوم الإنتاج والاستهلاك، وضرائب السيارات.

رفع سعر الدولار من ٤٠ إلى ٧٠ قرشًا (وهو ما عنى تخفيض قيمة الجنيه المصرى بما يوازى ٧٥ ٪ من قيمته الأصلية!).

وكان معنى هذا، بصورة واضحة، تحميل المواطنين محدودى أو معدومى الدخل، أعباء مباشرة جديدة تبلغ نحو ٥٠٠ مليون جنيه،

وتخفيض دخلهم بنحو ٢٠ ٪ من قيمته، فى الحد الأدنى، وإهدار كل حقوقهم المشروعة، وتبديد آمالهم فى المستقبل المشرق، الذين ضحوا من أجله دون تردد، وعاشوا يحلمون به ويترقبون وعوده !..

وبقدر اتساع حجم الحلم المُبدّد، جاء عنفوان الغضب المتفجر !.

فما هى إلا ساعات حتى كان الانفجار يهز أركان البلاد من أقصاها إلى أقصاها، من الإسكندرية ... حتى أسوان، وانهارت ممانعة السلطة ومقاومة فرق أمنها فى مواجهة زحف الملايين الهادر، وكما يروى "محمد حسنين هيكل"، فقد طلب محافظ أسوان من الرئيس السادات الذى كان يقضى يومه فى مقره الشتوى بالمدينة، ويستعد لاستقبال الرئيس اليوغسلافى "جوزيب بروز تيتو"، سرعة مغادرة المدينة على الفور، توقيًا للخطر المترتب على زحف الجماهير الثائرة، بعد أن قاربت الوصول إلى تخوم الاستراحة !.

وفيما كانت القاهرة تشتعل، وصل السادات، المذعور، إلى منزله بالجيزة، قادمًا من أسوان، حيث كانت، كما يذكر "أحمد بهاء الدين"، فى كتابه المهم "محاوراتى مع السادات"، (دار الهلال، القاهرة، ١٩٨٧) ": "طائرات الهليوكوبتر واقفة أمام البيت على شاطئ النيل، جاهزة للإقلاع، وكانت المنطقة كلها "محاطة بالدبابات الثقيلة، وفى مطار "أبو صوير" كانت طائرة السادات الكبيرة من طراز "بوينج ٧٠٧" رابضة على أرض المطار، مستعدة للطيران إذا حكمت تطورات الأحداث، وكانت وجهتها المقررة إذا جاء وقت الرحيل، إلى "طهران"، حيث كان الشاه على استعداد

لاستقبال أصدقائه، إذا اضطروا إلى الهرب من القاهرة "!.

لقد ظل الرعب من الذكريات السوداء لزلزال ١٨و١٩ يناير، أو "انتفاضة الحرامية"، كما أطلق عليها "السادات"، عاكسًا كراهته العميقة لتلك الفترة، ومقته الشديد لما حدث فيها، يشكل "فوبيا" ماثلة بشكل دائم فى فكر السادات، وفى خلفيات كل قراراته طوال السنوات الأربع التى انقضت، منذ يومى الانتفاضة، حتى اغتياله فى ٦أكتوبر ١٩٨١، ولم ينس "السادات" قط، على نحو ما قال للكاتب الكبير الراحل "أحمد بهاء الدين" (أنهم): "حاولوا مهاجمة بيتى فى الجيزة وكادوا يصلون إليه ... لقد كانت زوجات الوزراء والكبراء يصرخن فى بيوتهن فزعًا ويحاولن الاستغاثة بأى مخلوق، خوفًا من اقتحام "الغوغاء" البيوت على العائلات.

إن ماكانت تهتف به "الغوغاء" فى الشوارع كان فى غاية البذاءة!".

وفى غمرة البحث عن "متهم"، أو "كبش فداء"، يحمل وزر القضية، ويبرر أمام العالم ما حدث، ويعفى السلطة من مشقة معالجة الأسباب الحقيقية للانفجار، ويغطّى على جوهر الأزمة، الذى يدين الاعتراف به النظام وانحيازاته الاجتماعية وممارساته وجرائمه، تم إلصاق التهمة الجاهزة بمن أسماهم النظام: "الشيوعيين"، ودارت ماكينة التزييف الإعلامى تكيل الاتهامات، جزافًا، لهم، وتُعبّد لتلفيق القضايا، وتزأر طالبة "القصاص" منهم، وتصرخ بالدم والانتقام!.

ويكمل "أحمد بهاء الدين": "كان موقفه، (السادات)، ببساطة، أنه يريد انتهاج سياسة بالغة من الردع والشدة، وكان يقول أن

"الشيوعيين" هم الذين افتعلوا المظاهرات ضده، ويريدون أن يسموها "انتفاضة شعبية"، ولما قلت له إننى فهمت أن أحداً من الشيوعيين لم يقبض عليه فى المظاهرات، وإنما أخذت السلطة بعضهم من منازلهم! .. قال لى: ماهى دى شطارتهم: يولعوا "الحريقة" ويجروا على بيوتهم، ويسيبوا الباقى للحرامية والأوباش!.

قلت له: يبقوا شُطّار .. فالقضاء لن يتمكن من إثبات التهمة عليهم .. وشطارة البوليس أن يقبض عليهم فى المظاهرات. المحاكم ياريس ستُبرئ كل الذين ترى أنهم متهمون .. وأنا أقول ذلك كمحقق سابق!" ..

٤٨ ساعة هـزّت مصر !
رؤية شاهد عيان
لحركة موقع من مواقع الأحداث
خلال وقائع الانتفاضة الشعبية
١٨ و ١٩ يناير

اليوم الأول

١٨ يناير ١٩٧٧

اليوم الثلاثاء ١٨ يناير.

الساعة الواحدة بعد الظهر تقريبا.

كانت حلقات الزملاء، فى الحرم الجامعى، على المسطح الأخضر بالقرب من ساعة الجامعة، وبين الأركان، تنفض ثم تتجمع، فى سرعة وتدفق.

جلسنا فى حلقة متسعة نتدارس آثار ما أقدمت عليه السلطة، صباح اليوم، بإعلان قراراتها الجديدة لرفع الأسعار، فيما أسمته سياسة "تعديل المسار الاقتصادى". تكلم الزملاء الواحد بعد الآخر، بوضوح وتركيز، بينوا خطورة هذا التصرف، وأوضحوا إدراكهم تهديد هذا الإجراء للقمة خبز الشعب الكادح، الجائع المُعَذّب !.

شرح زميل للحشد أن هذا الإجراء قد تم بناء على تعليمات "البنك الدولى"، والمؤسسات الاقتصادية الرأسمالية العالمية، خاصةً الأمريكية، كخطوة جديدة فى سياسة تركيع الاقتصاد المصرى والتدخّل السافر فى حياتنا، والتحكم فى مصائر أوطاننا.

لم نكن وحدنا من صدمته هذه الإجراءات الاقتصادية الخطيرة، وحفزته على التحرك لإسقاطها!.

كان هناك كثيرون فى مواقع أخرى: داخل القطاعات العمالية والفلاحية، وبين مثقفى الوطن، يتحركون فى نفس الاتجاه!.

تشكلت عدة "مجموعات عمل". اتجه جزء منها لصياغة منشور لكى يطبع ويُوزع فورا على الجماهير، فيما اتجه قسم آخر لإعداد مجموعات من "الصحف الحائطية"، تهاجم هذا الإجراء الخطير، وتندد بآثاره، وتستنهض الهمّة لمقاومته، وللتصدى له بالتحرك المباشر فى الشارع، بينما انصرف آخرون لإعداد اللافتات المطلوبة، وتولت جماعات الاتصال بالعديد من الزملاء فى الكليات والجامعات والمعاهد والمواقع الأخرى، من أجل التصدى لهذه الإجراءات التى أقدمت عليها السلطة، خضوعا لشهوات الرأسمالية، المحلية والعالمية، وأطماعهما فى بلادنا .. وربطت بين ما يجرى على ساحة الوطن من معاداة لأبسط حقوق الجماهير، والتطورات على الساحة الوطنية، وبيع قضية شعبنا بأبخس الأثمان.

وتوقع الكثيرون ألاّ يمر ما أقدمت عليه الطبقة الحاكمة المعادية للجماهير دون مقاومة وتحرك شعبيين لإسقاطه!.

واقترحت قيادة الحركة الطلابية وضع خطة تحرك لمواجهة التطورات المحتملة. كنا ندرك أن هناك اتصالات عديدة تجرى بين شتى الكليات والقوى الأخرى خارجها، لتجميع وجهات النظر، واستخلاص التوصيات، والاستعداد لمواجهة التطورات اللاحقة.

الشرارة المنتظرة:

لم تكن حلقة الزملاء قد انفضّت بعد، حينما اندفع بعض الزملاء القادمين من خارج الجامعة إليها.

كانوا متهللي الوجوه، مستثارى العواطف.

أخبرونا أنهم عرفوا من زملاء قادمين تواً أن العمال فى حلوان (بمبادرة من شركة مصر- حلوان للنسيج)، قد بدأوا فى الخروج، آلافًا مؤلفة، بهدف التصدى للمؤامرة الجديدة على حياة الكادحين المصريين، المسحوقين تحت وطأة الاستغلال اليومى البشع.

قالوا إن قرارات رفع الأسعار قد أحدثت صدمة خطيرة لمشاعر الملايين، وأن اللحظة الحاسمة، التى طالما حلمنا بها، قد أتت، حين يستيقظ الشعب، وينهض من رقدته الطويلة، ويتحرك لكى يدرأ عن حماه سهام السفاحين القتلة!.

ملتقى الجموع:

انطلقنا عبر بوّابة جامعة القاهرة الحديدية الضخمة إلى الشارع.

عبرنا "كوبرى الجامعة" إلى الشارع، فى اتجاه "قصر العينى"، ثم اتجهنا إلى مقر "مجلس الشعب" الذى توقعنا اندفاع الجموع الشعبية نحوه كما تعودت من قبل، حيث شهد طوال الشهور الماضية

عشرات المسيرات والمظاهرات والتجمعات، الوافدة عليه، لتقديم طلبات الجماهير، والضغط من أجل تنفيذها، كما شهد، فى الوقت ذاته، مناورات أغلب أعضائه وقادته، لتمرير كل القوانين المعادية للشعب، ولتقنين استغلال الجماهير، ونهب ثمار كدّها !.

يوم غير عادى فى تاريخ مصر !

ما كدنا نصل إلى شارع " قصر العينى"، من جهة حى المنيل، حتى بدا الأمر واضحا: إن هذا اليوم لن يكون يوما عاديا على الإطلاق !.

كانت وفود العمال، والمواطنين البسطاء، قد بدأت تفد إلى الشارع، قادمة إليه من"حلوان"، الحى الصناعى العتيد، محمولة على عربات اللورى، ومكدسة فوق أسطح السيارات، التى تمر فى صفوف طويلة متعاقبة.

يرتدى العمال، فى الأغلب، ملابس العمل الكاكية والزرقاء، وهم يلوحون، فى قوة، بقبضاتهم، ويهتفون بحماسة وغضب !.

أما الجماهير فى الشارع الذى كادت حركته تُشلّ، فكانوا يتكتلون فى جماعات وحلقات.

سرنا فى الطريق هرولةً، وكل خطوة نتقدمها، تأخذنا إلى مواقع أكثر كثافة، وأشد ضجيجًا.

اخترقنا الحشد بصعوبة بالغة، فى محاولة مستميتة للوصول إلى قلبه !.

وعلى غير ما اتفاق دار سؤال واحد فى خلدنا جميعا: تُرى هل أزفت الساعة؟ !.

... وأجابت لمعات العيون إجابة واحدة !.

"إحنا الشعب مع العمال ضد تحالف راس المال" !

ذاب "مجلس الشعب" وسط طوفان الجماهير الهادرة !.

من "السيدة زينب" و"قصر العينى" أتوا.

من "ميدان التحرير" و"باب اللوق" وحى "عابدين" و"العتبة الخضراء" كانت تندفع تجمعات هائلة، مثل الروافد، التقت جميعها عند المصّب !.

الساعة الآن حوالى الثالثة بعد الظهر.

مظاهرات "حلوان"، المنطقة الصناعية الفتية، قلب مصر الفولاذى، نهدر وتموج، بعد أن التقت الجماهير الشعبية القادمة من كل الاتجاهات: طلاب الجامعة يتقاطرون، أفراداً وجماعاتٍ من كل صوب. مظاهرة ضخمة من "هندسة عين شمس" تحمل مساطر حرف " T " الهندسية، وتدوى بالهتافات، وترفع اللافتات. مظاهرة أخرى من "معهد التربية الفنية"، عبّرت عن رأيها باللوحات المرسومة، المحمولة فوق الرؤوس. مئات الآلاف من أبناء شعبنا يلتقون فى يومهم الكبير !.

الحناجر لا تكف عن الهتاف.

زئير هادر من جموع طلاب الجامعة، يهتف:

"إحنا الشعب مع العمال ... ضد تحالف راس المال"

"إحنا الشعب مع العمال ... ضد حكومة الاستغلال"

هدير جديد يردد:

"عبد الناصر ياما قال ... خللنوا بالكو من العمال"

الكوادر الوطنية التى يعرف بعضها البعض، تلتقى على نواصى الشوارع، تتشاور فى سرعة قبل أن تنطلق.

زملاء يُحملون فوق الأكتاف، يلوحون بالأيادى، والصوت المبحوح يجأر بالنداء.

ترد عليهم الجموع، وتسير خلفهم.

هتافات تدوى راعدة:

"يامجلس شعب صباح الخير ... ياللى رئيسك مليونير!"

"سيد مرعى (١) ده يبقى مين؟! ... يبقى حرامى الفلاحين!"

"يا بو وافيه (٢) يا بو وافيه ... إنت حرامى الناس الحافية!"

"يا حرامية الانفتاح ... الشعب جعان موش مرتاح!"

هدير يأتى من جهة "ميدان التحرير".

حشود شعبية جديدة، هائلة، تتدفق من شرايين أسطورية لكى تصب فى مركز المدينة الذى ينبض الآن كقلب واحد بالغ الضخامة.

أصوات غاضبة تشق عنان السماء:

"بالطول والعرض ... حنجيب ممدوح (٣) الأرض!"

دائرة ضخمة من مواطنين سمر الوجوه، يرتدى أغلبهم، جلابيب بسيطة، ويحملون عصي مميزة، انشقت عنها الأرض، يرقصون على إيقاع واحد ويهتفون:

"إدى إديله ... ممدوح حنقطع ديله!"

آلاف من سيدات مصريات مرتديات السواد، يلوحن بأيديهن غاضبات، هتافات .. ضجيج .. لافتات .. أهازيج شعبية .. صرخات ..

وفجأة يعلو من وسط الحشد هدير يتردد صداه فى جنبات الشوارع المكتظة :

" بـــــلادى ... بـــــلادى ... بـــــلادى ... "

عجوز أبيض الشعر يتدى جلبابا ، يبكى فى حرقة ويصرخ فى انفعال ، بصوت مبحوح : "والله دى ولا ثورة تسعتاشر !" ، ويصيح بصوت متهدج : "أنا شفتها بعنيا دول ... كنت صُغيّر بس واعى وفاهم !" ، ثم ينقطع عن الحديث بعد أن غلبه الموقف .

أطفال صغار بالآلاف ... ينبثقون من الأرض كما تنبثق قطرات الندى ... الصبيان بائعو المناديل الورقية والأمشاط والأقلام الجافة ، وماسحو الأحذية وموزعو الجرائد ... أكثر الحشد سعادة وطربا بما يرونه . يرقصون فى حبور كما لو كانوا مدعوين إلى كرنفال أسطورى ، مجانى ، بلا رقيب ! ... ويشعرون بأنهم يحتفون بيوم العيد الوحيد الذى لم يحرموا منه ! .

حركة الجموع تأخذنى من نفسى . ترتد بى إلى الخلف كأنى ذرة تتحرك طواعية وسط ملايين الذرات الشبيهة ، فألفانى أمام بوابة مبنى "مجلس الشعب" مرة أخرى . لا أحد منّا قادر على الحركة المنفصلة . ذبنا جميعا فى المجموع وتشكّل من كياننا المندمج جسداً واحداً عملاقًا لا أول له ولا آخر . معه لا تستطيع أن تتحرك إلاّ بوحى من إرادته الكلية .

من خلف بوابة المجلس الموصدة ، ينظر إلينا ـ ببلاهة ـ أعضاؤه المرعوبون وحراسه المذعورون ، المدججون بالسلاح ! .

صياح الجماهير يتعالى بمطالبها .

خمسة من المتظاهرين استطاعوا أن ينفلتوا إلى الداخل لإبلاغ صوت الشعب المحتج إلى المجلس، رغم ممانعة الحرس فى البداية !.

عن يمينى يعلو من بين الزحام صوت بكاء طفل صغير على كتف أمه التى تصرخ بعصبية، مشيرة إلى مبنى المجلس، وهى تلوح بقبضتها :

" الله يخرب بيوتكم ... جوعتونا ومصيتوا دمنا وعاوزين تعملوا إيه تانى فينا ؟ !".

مرة ثانية يعلو صوت جموع طلابية :

" شباب الجامعة ياما قال ... خلوا بالكو من العمال "

ترد عليه أصوات هائلة القوة، متجاوبة، بنفس الإيقاع :

"إحنا الشعب مع العمال ... ضد تحالف راس المال "

"إحنا الشعب مع العمال ... ضد حكومة الاستغلال " ...

المواجهة !

فجأةً :

مثلما يحدث فى أفلام السينما (الأمريكانى) !.

لهب يعلو قبة المجلس ودوى ودخان ... لم يكن حريقا، وإنما تم بفعل انفجار مجموعة من القنابل الصوتية والضوئية، فى الساحة الخلفية للمجلس ! !.

على اليمين، من جهة حى "السيدة زينب" العتيق، برزت فى أقصى الشارع أعداد ضخمة من جنود " الأمن المركزى"، مدعمين بالحافلات المدرعة والمجنزرات، ومدججين بأسلحة القمع، وعلى اليسار من جهة

حي "جاردن سيتى" الأرستقراطى، وعبر عدة شوارع متوازية تتقدم قوات مماثلة. ومن الخلف، من جهة "قصر العينى" تزحف مجموعات عسكرية كبيرة، لإحكام الحصار على المواطنين العزل، وهى تمهد لهجومها الشامل بإطلاق زخّات من الرصاص المطاطى وقنابل الغاز المسيل للدموع على تجمعات "الأعداء" !! ...

مدافع رشاشة وهراوات مطاطية ودروع صلبة تتقدم وسط صيحات عالية يطلقها الجنود تنخلع لها الأفئدة !.

توترات تجتاح الحشد على هيئة تخلخلات وتضاغطات متتابعة، وملامح صدام دام تنتشر فى الأفق وسط سكون ثقيل ومنذر يسيطر على المكان .

صوت قوى يعلو فجأة من وسط الجماهير :

" لم كلابك يا ممدوح ... دم اخواتنا مش حيروح ! "

هتاف غاضب آخر :

" مش حنخاف ... مش حنخاف ... من القلعة والاستئناف(٤) ! "

الحشود الغاضبة تزأر بالهتاف. هتاف آخر يأتى من يمينى ينضح بالعناد والتحدى :

" بالطول والعرض ... حنجيب ممدوح الأرض ! "

صوت طلابى يعلو :

" ياشباب ياشباب ... مابنخاف من الإرهاب "

بلغ التوتر الآن أقصاه .

لحظات ثقيلة الوطأة تندفع باتجاه لحظة الذروة ونقطة الانفجار !

المعركـــــة:

وبدأت المعركة .

بدأوها دفعة واحدة. وبدون سابق إنذار!.

الرصاصات المطاطية والقنابل المسيلة للدموع تنفجر فى كل مكان.

غازات كثيفة تحجب الرؤية وتؤذى العيون وتلهب الصدور. غازات لزجة وثقيلة وحارقة. استوردوها خصيصا قبل فترة وجيزة من الولايات المتحدة الأمريكية وعبارة "Made in U.S.A." مطبوعة على علب العبوات الفارغة المتبقية بعد إطلاقها على الكتل الجماهيرية العزلاء.

تجمعات الجموع الحاشدة تنبسط وتنقبض، فيما يتقدم جنود "الأمن المركزى"، ببطء من جهات ثلاث لإحكام الحصار علينا! .

نشيد " بلادى ... بلادى ... " يدوّى، مرة أخرى، غاضبًا متحديًا

القنابل المسيلة للدموع تنهمر فوق الرؤوس، والدخان الخانق يملأ المكان ... تراجعات وتداخلات جماهيرية وهمهمات تشى بقرب وقوع الصدام !.

زئير جماهيرى .

صوت شاب صارخ مندفع، يعقبه مطر طوبى يسقط فوق رؤوس الجنود ... بلاطات الشوارع الصلبة تنخلع بأيدى الجماهير الثائرة،

ثم تتحطم على الأرض إلى قطع صغيرة ... تلتقطها الأيدى ثم تقذف بها، بعنف وغضب، تجاه المعتدين.

رصيد جديد من قطع البلاط ومن الطوب والأحجار ... أسرعت بها "فرق إمداد"عفوية من الصبية الصغار، ترد على الهجوم الغادر، وتفلح فى وقف تقدمه !.

هجوم جديد، بعد دقائق لتنظيم الصفوف، تسبقه عشرات القنابل.

ظلام ثقيل يهبط.

الرؤية تتعذر، والتنفس يصبح صعباً، وسعال متصاعد، والعيون ملتهبة، موجوعة، من آثار الغازات التى تتكاثف فى الجو !.

أشباح الجنود تندفع فى اشتباك التحامى، وصدام عنيف مع الحشود، وأصوات صرخات متناثرة يضج بها المكان.

طوب ... وأحجار ... قنابل ... رش ... هراوات ... دروع ...

أصوات زجاج يتحطم من اصطدام القنابل المندفعة بواجهات بعض المحال وشبابيك البيوت.

زئير مصفحات ...

هتافات ...

كرّ وفرّ ...

جرحى ومصابين ودماء وركام يتناثر فى"ساحة القتال" !.

طوق من الجند يكاد يلتف حولنا ... يحتمى خلف المجنزرات المزمجرة، ويتقدم.

أفكر بسرعة: لازالت المعركة مستمرة، والنزال طويل، ولا يبدو له نهاية قريبة... والغد قادم!.

أقرر: يجب ألاّ ينجحوا فى الإمساك بى ... يجب التصرف بسرعة ... ولابد من اختراق الحصار مهما كان الثمن !.

أندفع إلى شارع فرعى صغير فى "جاردن سيتى".

أجرى مسرعًا حتى آخره.

توقفنى اندفاعات الأحذية العسكرية الثقيلة التى تتقدم لكى تغلقه!.

أرتد إلى كاراج للسيارات أسفل عمارة شاهقة، يقودنى بابه الداخلى إلى شارع قرب السفارة الأمريكية ... التى يحيط بها جند الحراسة من كل جانب!.

مئتا خطوة بينى وبين نهاية هذا الطريق، تقريبًا ...

أقطعها هرولةً، حتى لا ألفت انتباه حرس السفارة الذين يظهرون، متحفزين، على مرمى البصر، قبل أن يصل طابور جنود الأمن المركزى، الذين يطاردون أشتات المتظاهرين، إلى المكان !.

أنجو فى اللحظة المناسبة تمامًا قبل أن يتم إغلاق المكان بالكامل !.

ألتف صاعدًا باتجاه "ميدان التحرير"، من خلف مبنى "المجمّع" الهائل، الجاثم فى جانب منه.

آثار المعركة التى تدور رحاها فى كل موقع تبدو أمامى ومن خلفى، وعلى الجوانب: آثار المياه الملونة التى تطلقها سيارات فض

المظاهرات تغرق أسفلت الشوارع ... زجاج مهشم ... خراطيش فارغة ... وبقايا القنابل المسيلة للدموع تملأ المكان، والجو يعبق برائحة الغاز النفّاذة !.

أندفع إلى قلب الساحة متجنبا مواقع تجمعات الجند ومجنزراتهم التى كانت تجاهد لإغلاق الميدان الفسيح وسط مقاومة ضارية !.

أتجه بكل طاقتى مستهدفًا الوصول إلى القلب الخفّاق للقاهرة، حيث ترتسم فى جلال "الكعكة الحجرية"، الصامدة، فى عمق الميدان الدائرى الكبير.

إصحى يامصر

هأنذا اقترب حثيثًا من مركز "ميدان التحرير" الذى يقبع تحت سحابة ضخمة من الغازات والدخان واللغط والأصوات والهتافات والشتائم !.

حشد رهيب يملأ المكان ويشغل كل ركن فيه !.

مشهد ملحمى، أسطورى، ذلك الذى يبدو أمامى، أجرى بكل قواى عابراً من طرفه الملاصق للجامعة الأمريكية !.

الزحام خانق، والصدر ينتزع الأنفاس بصعوبة، والحركة شاقة، لكن الروح المعنوية عالية، والعيون "تطق" بالتحدى.

جحافل الأمن المركزى تتقدم من خلف مبنى "المجمع"، مثل ديناصور أسود، باطش، هائل الحجم، قاطعة الطريق من أمام مبنى الجامعة الأمريكية.

الجماهير تواجهها بالهتافات المعادية :

" بالـروح ... بالـدم ... حنـــــكمّـل المشوار "

" بالـــــروح ... بالـدم ... حنرجّع الأسعـار ! "

" بـلادى بـلادى بـلادى ... لك حبى وفـــؤادى "

" لـم كلابك يا ممدوح ... دم اخواتنا مش حيروح "

مُجددًا بدأ العسكر بإطلاق القنابل و طلقات الرش، على الآلاف من العزل، بأوامر من ضابط متوتر، يبدو بالغ التأنق فى زيه الحربى المكوى بعناية لا تتفق مع واقع الحال !.

الناس لا تملك ما ترد به إلاّ مطر الطوب والحجارة ...

معركة مجيدة تقودها جماهير الشعب المتمركزة فوق الكوبرى الحديدى العلوى، المستدير كالحلقة، فى مواجهة جنود "الأمن المركزى" الذين بدأوا فى تطويق المكان بكثافة واضحة !.

كتلة جماهيرية ضخمة تندفع إلى شارع "التحرير" الذى يقودها إلى ميدان "باب اللوق"، وتنزلق، وأنزلق معها، باتجاه حى "السيدة زينب"، إلى حيث تلتقى هنَاك مع حشد آخر، أتى من الحوارى والأزقة والشوارع المحيطة.

أفلحت الكتلة الزاحفة فى اختراق حصار "الأمن المركزى" بجوار "مجلس الشعب" ... تلتحم الكتلتان معًا، وتشكلان جسدًا بالغ الضخامة والقوة، يخوض معركة طاحنة، وصراعًا داميًا، ضد قوات السلطة الغاشمة، مسرحه حوارى وأزقة وشوارع وميادين الحى العتيق.

تستمر المعركة بين كرّ وفرّ، يصمد فيها قطاع من الحشد الشعبى، حتى ساعات الصباح الأولى!.

وأما الجزء الأكبر من جماهير "ميدان التحرير"، التى ارتددت إليها مع قسم من حشود حى "السيدة"، فينطلق فى تجمّع هائل الجسامة ... ينجح فى اختراق صفوف الأمن فى أول شارع "سليمان"، ويتدفق إليه، فى صخب، مثلما يتدفق سيل المياه المندفع فى الممر الناجم عن انهيار فى السد الحاجز!.

ينطلق الحشد المنتشى بقوته، بعد تراجع قوات الأمن، يصرخ فى عنفوان، وتردد حوائط بيوت "القاهرة الكلاسيكية" صدى صرخاته الهادرة ويعيدها إلينا قوية وقادرة

"إصحى يا مصـــر ...

إصحى يا مصـــر ...

إصحى يا مصـــر"

اليوم الثانى
١٩ يناير ١٩٧٧

" يادى العار .. يادى العار ... مصرى بيضرب مصرى بنار !"

" يادى العار .. يادى العار ... مصرى بيضرب مصـــر بنار !"

نهرع منذ الصباح الباكر إلى قلب القاهرة.

قبل لحظات كان الراديو يتقيأ أكاذيبه وادعاءاته وسمومه المعهودة !.

والجرائد بمانشيتاتها العريضة تتحدث عن "المخربين" الذين عاثوا فى البلاد فساداً ،.وتلقى بـ (تهمة) التظاهر و"الاضطرابات" التى عمت أركان مصر ، وانتشرت فى كافة ربوعها على الشيوعيين، و"المندسين" كالعادة ... !.

استمرت المظاهرات بالأمس فى معظم أحياء القاهرة والمحافظات من الإسكندرية حتى أسوان ، وظلت صدامات الجماهير مع أجهزة القمع حتى الساعات الصباح الأولى .

القاهرة تبدو باردة الطقس ، متحفزة الملامح ، ساخنة الأنفاس ،

القاهرة تبدو باردة الطقس، متحفزة الملامح، ساخنة الأنفاس، وعلامات التوتر تُلحظ فوق قسمات الوجوه، وفى ألق العيون !.

شريط من صور الأمس يمرق فى طيات الذاكرة .

فى الفجر اقتحمت قوات القمع وأجهزة المباحث بيوت قادة الحركة الوطنية، من عمال وطلاب ومثقفين.

انقضت عليهم بحقد وشراسة، فى محاولة يائسة لتصفيةحركة الشعب الهادرة، ولجم اندفاعها الكبير !.

الضربة تفشل فى تحقيق أغراضها تمامًا، فأغلب الكوادر الوطنية المجربة وعت الدرس، وتوقعت الضربة، وتحوطت لتفاديها فلم تبت فى منازلها !.

فى الأتوبيس حديث الناس يرتفع فى عنف وحماسة، وبلا خوف أو وجل، مفتخراً ومتباهيًا، بيوم الأمس العظيم ... !.

إلى القلب الخفّاق:

الكل منذ الساعات الأولى للنهار يسعى إلى قلب مصر الذى ينبض اليوم كما لم ينبض من قبل !.

مركزالعاصمة فى موعد جديد مع حشود لايعرفها، يتحركون، حشيشًا، صوبه ... وكأنما تُحركهم إرادة واحدة عظمى ... إرادة الشعب الأكبر، وتقود خطاهم .

من "حى عين شمس" النائى بضواحى القاهرة، حيث قضيت ليلتى عند صديق، حتى "محطة غمرة"، يخترق الأتوبيس تجمعات راجلة، وفرادى كُثّر يغذون السير فى اتجاه واحد.

عند "غمرة" توقفت الراكبة خلف طوابير طويلة من العربات التى فقدت قدرتها على الحركة وسط الخضم الجماهيرى الهائل المحيط .

ننزل ونسارع الهرولة باتجاه "ميدان رمسيس" .

تجمعات كبيرة، وجموع ضخمة تنقبض وتنبسط مثل رئة عملاقة.

أصوات المناقشات الحامية ترتفع هنا وهناك، وحوارات صاخبة تشى بأن المعركة لاتزال مستمرة، والصراع قائم، والجولة لم تحسم بعد !.

السابعة تقريبًا :

"ميدان رمسيس" يعج بعشرات الآلاف من المواطنين ... همهمات تتصاعد. هتافات تتردد من هنا وهناك. ردود متفرقة .

نتقدم باتجاه "ميدان التحرير" . بعد فترة يسكن الزحف، ثم يتحرك ببطء !.

يرتفع على الأكتاف شاب يرتدى النظارات الطبية. يرفع يده فيصمت الجميع ليدوى صوته القوى، الثاقب :

" يا أهالينا ... يا أهالينا ... آدى مطالبنا وآدى أمانينا :

أول مطلب ياشباب ... حق تعدد الأحزاب

تانى مطلب ياجماهير ... حق النشر والتعبير

تالت مطلب يا أحرار ... ربط الأجر بالأسعار

إحنا الطلبة مع العمال ... ضد حكومة راس المال "

رغيف على سارية !

يموج الحشد بانفجارات راعدة تردد الهتاف المدوى، ومن ركن آخر

يرتفع على الأكتاف شاب آخر، كث الشارب، عمالي المظهر، يرتدى ملابس كاكية، ويصرخ بصوت أجش :

" مش كفايه لبسنا الخيش
جايين ياخدوا رغيف العيش !"

... انفجارات الرعد الجماهيرى تستمر، بينما وعلى حين غفلة، يرتفع من قلب المظاهرة الضخمة رغيف من الخبز محمولاً على سارية رفيعة طويلة : علامةً وإشارة !.

حوالى الثامنة والثلث :

تنطلق زغاريد من بلكونات العمارات التى يمر بها الحشد، تحيى وتمجد المتظاهرين ... نقترب من سينما "رمسيس" ... بجورها "نقابة المهندسين" التى ترتفع على أسوارها أعلام الدول العربية المشاركة فى أحد مؤتمراتها . على باب النقابة تجمّع المشاركون فى المؤتمر يصفقون بحرارة تعاطفًا مع المتظاهرين .

فجأةً يثب أحدهم إلى السور العالى ... يتشبث بأطرافه حتى يقف فوقه ... يتحرك كالبهلوان على إفريزه الضّيق ... يخلع سارية علم فلسطين وعلم مصر ... ويلوح بالعلمين للجماهير التى توقفت ترنو إليه، فترد تحيته بهدير صاخب جديد من الهتاف والتصفيق .. يربط الشاب طرفى العلمين معًا، ويعطيهما للمظاهرة المندفعة !.

نقترب من ميدان الإسعاف :

فجأة، وبدون إنذار، تندفع سيارات "الأمن المركزى" بين الحشد، فى اتجاه "ميدان رمسيس" ... بصعوبة يتفادى الناس السقوط تحت

عجلاتها الباطشة . . . ما تكاد السيارة تمر حتى يتسلمها المئات من الأطفال، الذين انشقت عنهم أرض المكان، بوابل من الطوب والحجارة.

تتوقف السيارات بعيداً عن مرمى القذائف الشعبية، ويترجل راكبوها ! .

ينظمون صفوفهم للمعركة التي سرعان ما تبدأ بقذفهم القنابل المسيلة للدموع، وإطلاق زخات القنابل المطاطية والرش . . . فترد الجماهير الغاضبة المستثارة بعنف، مستخدمة سلاحها المُجرّب: طوب الشوارع وأحجار الطريق !.

يلتهب النزال ويستعر أواره:

ما يهمني الآن هو أن أصل إلى "ميدان التحرير": ساحة الصراع الرئيسة الآن، و..."مركز الكون" !.

أجرى عبر "شارع شامبليون" تفاديا لصفوف جنود "الأمن المركزي" التي تحاول منع الحشود عند منطقة الإسعاف من الالتحام بـ "ميدان التحرير" وجماهيره !.

قُرب نهاية شارع سليمان تقاطعت خشودنا مع مظاهرة رهيبة قادمة من "ميدان التحرير" تحوى عشرات الآلاف . . . ولا يبدو لها أولاً من آخر، أذوب وسطها، وألتقي زملاء عديدين داخلها، وألمح على قمتها زميلا لنا يردد شعاراتنا، التي كنا نطلقها في مظاهرات الجامعة وإضراباتها، والجموع ترد عليه بقوة وحماس يستدران دموع التأثر، ويدفعان الرعشة للأجساد !.

يستدير الحشد الضخم حول مبنى شركة التأمين، الأوربى الطابع، الجاثم فى ناحية من "ميدان طلعت حرب"، ويتجه إلى شارع عرضى باتجاه "باب اللوق"، وأنا مندفع وسط الحشد لمقدمتها !.

أصعد على رصيف مرتفع فى محاولة لاستطلاع آخر المظاهرة فلا أجده !.

قبضاتنا وقبضات الحشود ترتفع عاليًا، وحناجرنا تشتعل ترديدا للهتافات التى ألهبت حماسة الجماهير :

" ياحكومة الوسط وهزّ الوسط (٥) ... كيلو اللحمة بقى بالقسط !"

"يشربوا ويسكى وياكلوا فراخ ... واحنا الجوع دوخنا وداخ !"

"ياحراميـــــة الانفتـــــاح ... الشعب جعان مش مرتاح !"

"جوز الجزمة بسبعه جنيه ... أمّال الفقرا يلبسوا إيه ؟ !"

نقترب من ميدان "باب اللوق" ... الحشد الضخم يملأ كل شبر فيه، ويغطى الجسر العلوى ...

تنطلق القنابل المسيلة للدموع نحونا من جهة محطة "مترو حلوان" باتجاه مركز الميدان فينفجر غضب الشعب !.

يخلع المتظاهرون طوب الشوارع ويحطمون بلاطاته وأحجاره قطعًا قطعًا ... يتسلحون بها فى مواجهة عدوان الجحافل الهمجية التى بدت كأنها فقدت صوابها وجُن جنونها ... !!! .

المعركة حامية تدور رحاها بين فرق "الأمن المركزى"، المتمترسة عند مدخل محطة المترو، وفرق الرماية الشعبية من فوق الجسر.

الجو يعبق بالغازات الخانقة، ودخانها يعشى العيون، ويلهب الصدور، ولكن لا أحد يتزحزح من مكانه !.

مجموعات كبيرة توالى الرماية من أعلى الجسر، وأخرى تتولى تموينها بفيض من "الأسلحة الحجرية"، بنشاط وتفانٍ !.

سيل الأحجار، المحمول على أجنحة الشجاعة والبطولة، ينتصر على المجنزرات والدروع، فيتوقف مطر القنابل بعد أن فشل فى كسب المعركة !.

الجماهير الفرحة، فوق الجسر وأسفله، ترقص فى حبور.

الوجوه مستبشرة، وأهازيج النصر تعلو وتحلّق فى سماء "المحروسة":

" بالطول والعرض ... حنجيب ممدوح الأرض !".

"غنائم حرب" !

ثم ينطلق سلاح السخرية المصرى اللاذع كى يلعب دوره الكبير ! ...

شباب من الفرق الشعبية "الطليعية" تتولى مطاردة تجمعات "الأمن المركزى"، (التى بدأت تُنهك، بفعل الجهد المتواصل طوال يوم أمس وما انقضى من ساعات اليوم)، وتواصل الجرى خلف فلوله البائسة المذعورة، وتمطرها بوابل من الطوب والحجارة !.

يحتمى عساكر الأمن بسياراتهم المصفّحة، بينما تعود فرق المطاردة الجماهيرية بـ "غنائم الحرب": خوذات جنود الأمن، ودروعهم، وعصيّهم، وفردة حذاء من أحذيتهم !، وفرقة أخرى

عادت بملابس جندى كاملة، خلعتها عنه بعد أن أسرته، وعادت ببطاقته الشخصية ومتعلقاته! ... وحلقات الجماهير المنتشية بقوتها ترقص فى الميدان .خوذة جندى من "الأمن المركزى" فوق عصى من عصيّهم فى يد شاب باسم الوجه يرقص بها، وسط حلقة واسعة تدق إيقاعات الانتصار وهى تغنى فقرة من أغنية شعبية متواترة فى التراث الشعبى: "الله الله يا بدوى جاب اليسرى".

وفجأة ينطلق الرصاص ... من حيث لا ندرى ينطلق الرصاص ... هرج ومرج وفوضى وصراخ ... الدم يلطخ أسفلت الميدان، يسيل ويسقط عشرات جرحى ومصابين ...

الساعة لا زالت لم تتجاوز التاسعة والنصف صباحًا:

نحمل الضحايا إلى مداخل العمارات فى محاولة مستميتة لإسعافهم ... تدمع العيون وأحد المواطنين يقرأ من واقع البطاقة الشخصية اسم أحد الضحايا الذين سقطوا برصاصات حيّة أطلقها الجنود علينا!.

الحشد الهائج بعد أن سال دمه ينطلق فى ثورة ماردة باتجاه "قصر عابدين" ... عشرات الآلاف ينطلقون فى غضب وهم يلوحون بقبضاتهم الثائرة، وشعاراتهم تكاد تهدم ما حولنا من بيوت، بعنفوانها وجبروت صداها!:

" يا شباب ... يا شباب ... مش حنخاف من الإرهاب "

" يا ممـــدوح ... يا ممدوح ... دم اخواتنا مش حيروح "

نقترب من "قصر عابدين" ... كان دائمًا مكمن الفساد ومصنع القهر السياسى، ومأوى الاستبداد وأعداء الشعب.

القصر محاط بالمتاريس وجحافل الجنود المدججة بالسلاح والمصفحات، فى أعلى حالات التأهب !.

ولأول مرة نبصر حشوداً من الجيش، لا جنود الأمن المركزى، تتمركز فى المواقع الاستراتيجية حول القصر، بعد أن بدا جلياً أن قوات الأمن وحدها باتت عاجزة عن السيطرة على الوضع الحرج، الذى بدأ يفلت من قبضتها بسرعة، ويهدد بسقوط النظام بالكامل !.

أمام مداخله وفوق سطحه نصبت عشرات المدافع الرشاشة المصوبة تجاه حشود المتظاهرين، لكن هذا الوضع لم يرهب الجماهير التى تحررت من الخوف، وشعرت بسطوتها وقواها الكامنة الهائلة، بل على العكس أثارها أكثر، ونكأ جراحها، فانطلق المارد يدمدم :

"قولوا للنايم فى عابدين (٦) ... العمال بيباتوا جعانين"

"يا حاكنا من عابدين ... باسم الحق و باسم الدين ؟ !"

"يا حاكمنا من عابدين ... فين الحق وفين الدين ؟ !"

"يا حاكمنا بالمباحث ... كل الشعب بظلمك حاسس !"

"الصهيونى فوق ترابى ... والمباحث على بابى !"

"هو بيلبس آخر موضة ... واحنا تاكلنا السوق السوده !"

"هو بيلبس آخر موضة ... واحنا بنسكن عشرة فى أوضه !"

"هو بيبنى فى استراحات ... واحنا نعانى آهات وآهات !"

"هما بياكلوا حمام وفراخ ... واحنا الجوع دوخنا وداخ !"

يرتفع التوتر حتى يبلغ أقصاه .

أقل حركة تعنى مجزرة ونهراً من الدم لن يجف أبدا ...

يتوجه الحشد بتلقائية إلى "عساكر" الجيش بهتافهم المدّوى:

"يا أخويا ياجندى الجيش ... شعبك حافى ولابس خيش!"

ثم يعم المكان صوت واحد عميق هادر يغنى فى قوة:

"بلادى بلادى بلادى ... لك حبى وفؤادى"

ينكس الجنود المدافع...

وتمر اللحظة الخطيرة، حيث ينحنى الجسد الهائل باتجاه قسم شرطة عابدين... من تفرّع آخر بالشارع ينبثق باتجاهنا حشد آخر قادم من ميدان العتبة ... يلتقى الجمعان أمام قسم الشرطة الأشبه بقلعة من قلاع القرون الوسطى!...

فى آخر الشارع الممتد بمحاذاة القسم، الذى يقع على الجانب المواجه فيه "مسرح الجمهورية"، تبرز سيارات "الأمن المركزى" المصّفحة، يحتمى خلفها المئات من الجنود المسلحين...

ومرة أخرى، وبلا إنذار، يُصّفر فى الفضاء صوت القنابل المتساقطة علينا، وينطلق الرش والرصاص. الدم يغمر المكان حولنا.

نحمل المصابين إلى أركان جانبية بعيداً عن ساحة المعركة، بينما يتولى الناس الرد بأسلحته التقليدية: الطوب والحجارة!.

يصعد العديد من الشباب على برج اللاسلكى المنصوب أمام قسم الشرطة، يراقبون ساحة القتال ويعطون التوجيهات ويصدرون التعليمات (لجنود) الشعب فى الأسفل!.

المعركة تحتدم ويشتد أوارها ... والجماهير الصامدة، بالطوب، لا تتراجع، بل يمتلئ المكان ويتكدس البشر حتى يصعب التحرك فيه.

تهليل كبير لانسحاب جنود "الأمن المركزى" ـ انسحاباً مؤقتاً ـ يعود بعدها وهو مزود بمدد جديد من الذخيرة الحيّة ... هذه المرة لامجال للإنذارات أو القنابل المسيلة للدموع، وإنما الرصاص والرش مباشرة.

دمٌ جديد ! ... فتاة تخلع منديل رقبتها تلف به جبهة مصاب !.

سيدة بالزى الأسود التقليدى تحمل على صدرها طفلاً مُصاباً تهدهده وهى تبكى ... عجوز يسيل الدم على وجهه يرفض مغادرة ساحة القتال ... الجماهير بالصدر الأعزل تواجه الموقف الصعب، دون وجل.

واجهة مسرح الجمهورية تتهشم فى صوت عال.

تنفصل كتلة كبيرة من الحشد ترتد باتجاه "باب اللوق" ثانيةً ... معارك فى كل الشوارع الجانبية ... صوت الرصاص يدّوى والجرحى بالعشرات فى الأركان. فى أحد الشوارع جنود الأمن يبحثون عن طوب الأرض ليواجهوا به طوب الجماهير المنهمر، وهم يحمون وجوههم وأجسادهم بالدروع الحديدية ... وبرغم كل شىء تبدو كفة الجماهير أرجح، وجنود الأمن يُجبرون على الانسحاب، يتمركزون فى الشوارع البعيدة لتضميد الجراح وضم الصفوف.

مظاهرة حاشدة من سيدات الأحياء الشعبية بملابسهن السوداء ... الأطفال فى الأيدى وعلى الأكتاف، وهتافاتهن تدّوى .

نتحرك صوب "الجامعة الأمريكية" ... الواجهة الزجاجية العريضة بعرض مبنى الجامعة كله تتهشم تحت وقع القذائف الطوبية من الحشد الذى بلغت نقمته الحد الأعلى !.

هتاف غاضب :

"يا أمريكا لِّمى فلوسك ... بكره الشعب العربى يدوسك !"

نسمع حواراً جانبياً حاداً بين تجمعات المشاركين فى قذف المبنى، يدور مضمونه حول اكتشاف الشعب حقيقة الخديعة التى روجت لها الطبقة الحاكمة، بشأن "المساعدات الأمريكية" المزعومة لمصر وشعبها، وعن سفن السمن والعسل والدقيق واللحوم الوهمية، والدولارات الأمريكية التى كانتَ الصحف الحكومية تمنى الناس بأنها ستهطل عليهم من السماء كالمطر !، لإيهام الجماهير بقرب حل مشاكلها وانتهاء أزماتها المستحكمة الخطيرة !.

رجل وقور متماسك الجسم، قصير بعض الشىء، يرتدى بذلة وكرافت، وتبدو عليه سمات الموظف العمومى المخضرم، يقبع فى الركن مراقباً ومترقباً ... ألمحه فأركّز بصرى عليه ! ... ينظر حوله لكى يتأكد من أن أحداً لا يراه، فالكل مشغول بما يجرى من وقائع. يتقدم بوقار عابراً الشارع، ويده خلف ظهره تنقبض أصابعها على قطعة من الحجر. يحرك يده فى الفضاء مرة ثم مرة أخرى و(ينشن) على لوح زجاجى لم يُكسر ويطلق قذيفته ... يتحطم اللوح

الزجاجى ويُسمع لسقوطه دوى ... صيحات جماهيرية مهللة ... الرجل يقطع الشارع عائداً فى خطوات واسعة، وعلى سيمائه ملامح نشوة غامرة، ووجهه المتغضن تملؤه ابتسامة عريضة ... يتقدم فى ثبات لكى يحتل مكانه وسط الجموع الهادرة التى رحبت به بحماس ظاهر ... تشعر من طرف خفى كما لو كان هذا الرجل قد استعاد شبابه ثانيةً، وأفكر : لعله استعاد ذكريات نضالية قديمة كادت تطمرها الأيام وتندثر خلف الأضابير وتحت ركام روتين الوظيفة!... أو عساه استرجع من تلافيف الذاكرة أصداء ملاحم شبيهة، يوم كانت مصر تخوض معارك داميةً، أيضًا، ضد الاحتلال وأعوانه من الفاسدين والخونة!.

من جديد معارك تنشب فى أركان"ميدان التحرير"... الجماهير فوق الجسر الحديدى العلوى*، وقوات "الأمن المركزى"أسفله... ثانيةً نكمل الدورة وندخل شارع سليمان ثم نعبره مع كتلة جماهيرية إلى "شارع شامبليون" فى الطريق نحو"دار القضاء العالى".

الجماهير تملأ الشارع من أوله حتى آخره ... تنضم مظاهرة كبيرة إليه تصب فى شارع عرضى . المظاهرة مكونة من طلاب الجامعة الأزهرية الذين خرجوا يرددون هتافًا واحداً :

" لا إلـه إلاّ الله ... السادات عـــــدو الله "

الساعة حوالى الثانية والربع بعد الظهر:

لم أشعر أن أكثر من سبع ساعات قد مرت منذ بدأ التجمع والتظاهر والصدام مع الأمن.

أمام "دار القضاء العالى" يزداد غضب الجماهير ... معارك على يميننا تبدو آثارها من الدخان الكثيف المتصاعد، الذى يملأ الفضاء فوق "ميدان العتبة" ... ومعركة أخرى طاحنة تدور رحاها على يسارنا عند "الإسعاف" ... يندفع الحشد باتجاه "ميدان عرابى" ... هتافات وصيحات وحوارات وهتافات جديدة ...

الساعة تقترب من الثالثة:

... جحافل "الأمن المركزى" تتقدم نحو "ميدان عرابى" لكى تسد الطريق على جموع الشعب الزاحفة.

فجأة : علم مصر، يرفرف فى الأفق !.

تنشق الأرض عنه !.

يرتفع بين الأيدى فوق ساريته .

علم كبير وجليل .

القشعريرة تسرى فى الأبدان، وشاب يصعد به فوق كشك المرور لكى يخفق عاليًا .

الأيدى تلوح له بالتحية، والحناجر تعلو بنشيد :

" بلادى ... بلادى ... بلادى ... لك حبى وفؤادى !.

الدموع الحارة، الغزيرة، تنسال من عيون عشرات الآلاف ... لا أحد يخجل من دموعه أو يحاول أن يداريها ! ... صدى كلمة "بلادى" القوية يتردد فى الفراغات الكامنة بين العمائر العالية، فيهز الأركان ويأخذ بمجامع القلوب ...

الذكريات تنثال فى وجدانى حيّة متدفقة، كأنى كنت أحد

معاصريها والمشاركين في وقائعها : هنا سارت مظاهرات أجدادى تهتف فى كبرياء :

" الاستقلال التام ... أو الموت الزؤام "

و " يحيا الهلال مع الصليب "

و " نموت ... نموت ... ويحيا الوطن " .

وهنا سقطت أرتال الشهداء ورووا بدماهم الطاهرة أرض الوطن ! .

الثالثة والنصف تمامًا :

لم يبق سوى نحو نصف الساعة على موعد حظر التجوال الذى أعلنته وسائل الإعلام، بحسب الأمر الذى أصدرته السلطة، لمحاولة السيطرة على الوضع الذى أوشك على الانفلات، ولإعادة الإمساك بناصية الأمور !.

نهرع إلى شوارع جانبية باتجاه حى "باب الشعرية" باتجاه "ميدان الجيش" ...

فى الطريق نمر بأزقة ضيقة وحوارٍ ... آثار المعارك الدائرة لم تزل ماثلة : بقايا زجاجات مهشمة، فى معارك المواجهة ضد "الأمن المركزى"، وطوب وحجارة ... وبقع دم على الأسفلت، حمراء ... لزجة .

أمام "مستشفى باب الشعرية" حشد كبير من أهالى المصابين الموجودين داخلها ...

جريح برصاص فى صدره محمول على الأعناق !.

أم ترتدى السواد وبين يديها طفلها الشهيد تتقدم باتجاه المستشفى ... سكون ثقيل ... ثم انفجار عويل النساء وهن يهرعن باتجاه الأم الشجاعة !.

عربة "كارو" تتقدم محملة بالجرحى ! ... تسرع بهم نحو بوابة المستشفى ! .

دخان أسود كئيب يرتفع من ناحية قسم شرطة "باب الشعرية" .

دقائق على بدء سريان الأمر العسكرى بحظر التجوال .

من بعيد نلمح صفوف قوات الجيش، بمصفحاتها وزيها الكاكى المميز، تتقدم لاحتلال تقاطعات الطرق ونواصى الشوارع .

أذوب وسط الجموع العائدة إلى مواقعها .

تتتابع، فى تواتر محموم، الصور والأحداث الهائلة التى مرت أمس واليوم، وتتزاحم فى الذهن ! .

مظاهرات ... صدامات ... شعارات ... جرحى ومصابين، صرخات وهتافات ... صورة فتاة جميلة على رأس مظاهرة ... صورة طفل حافى القدمين يتصدى بالطوب، لعدوان "الأمن المركزى" ... صورة الأم التى تحمل وليدها الشهيد ... صورة العلم يرفرف فوق السارية بعزّة وكبرياء.

أمضى فى طريقى، مُنهك القوى بعد يومين حافلين .

أسترجع شريط الأحداث الرهيبة التى انقضت كأنى أعيش حلمًا لّما أفق من سطوته بعد، حزينًا وسعيدًا، فخورًا وغاضبًا فى آن معًا .

وأسمع من زقاق جانبى صوت "الشيخ إمام" يلعلع عبر جهاز التسجيل :

"يا مصر قومى وشدّى الحيل
كـــل اللى تتمنيـــه عندى"
"يا مصـر عودى زى زمـان
ندهـــه من الجامعة وأذان"
"يامصر قومى وشدّى الحيل
يامصر قومى وشدّى الحيل" (٧)

الهوامش

١ـ سيد مرعي : وزير زراعة سابق، والأمين العام للاتحاد الاشتراكي، ورئيس سابق لمجلس الشعب . كان من كبار مُلا ك الأراضي، ونسيبًا لأنور السادات وواحد من أبرز شخصيات السلطة في عهده ! .

٢ـ محمود أبو وافي : عديل أنور السادات، وأحد كبار رجال عهده .

٣ـ ممدوح سالم : وزير الداخلية ثم رئيس الوزراء في حكم السادات .

٤ـ القلعة والاستئناف : سجنان سيئي الصيت، كانا مستقراً لأعداد ضخمة من المناضلين اليساريين والوطنيين في سبعينيات القرن الماضي .

٥ـ حكومة الوسط : مقصود بها حكومة "حزب الوسط"، الذي تسمى بـ "حزب مصر"، فـ"الحزب الوطني الديموقراطي"، بعدما تم تقسيم "الاتحاد الاشتراكي العربي" إلى أقسام ثلاثة، عام ١٩٧٦ .

٦ـ عابدين : القصر الملكي ومقر الحُكم قبل يوليو١٩٥٢، ثم قصر الرئاسة، حتى استُبدل بقصر العروبة ثم "قصر الاتحادية"، كمقر للحكم في العصر الراهن .

٧ـ الكلمات للشاعر نجيب شهاب الدين .

*الجسر الحديدي العلوي : جسر علوي دائري، كان يلف ميدان التحرير من محيطه الداخلي للعبور بين أرجاء الميدان الشاسع، أزيل بعد الانتفاضة "لأسباب أمنية"، حيث كان المتظاهرون يعتلونه لقذف عناصر الأمن بالحجارة ! .

ملاحق الكتاب

أمر الإحالة للمحكمة

فى القضية رقم ١٠٠ لسنة ١٩٧٧ حصر أمن دولة عليا
والمقيدة برقم ٥٧ لسنة ١٩٧٧ جنايات أمن دولة
والمقيدة برقم ١٩٧٧ / ١٨٤٤ جنايات عابدين
(١٩٧٧ / ٦٧ ك وسط القاهرة)

إبراهيم مصطفى القليوبى النائب العام

بعد الاطلاع على القضية وما تم فيها من تحقيقات

نتـــهـم

١ ـ محمد عـزت عامـر (مهـندس بـوزارة التخطيـط)
٢ ـ محمود حسـن الشاذلى (باحـث بوزارة التخطيـط)
٣ ـ طلعـت معـاذ رميـح (طالـب بكلية آداب القاهـرة)
٤ ـ محمد فـريد سعد زهـران (طالب بكلية زراعة القـاهرة)
٥ ـ كمـال خليـل خليل (خريج كلـية الهـندسـة)
٦ ـ أمـير حمـدى سالـم (طالـب بكلية حقوق عين شمس)
٧ ـ أحمـد بهاء الدين شعبان (طالب بهندسة القاهرة)
٨ ـ أحمد مصطفى اسماعيل (طالب بكلية الإعلام)
٩ ـ يحيى مبروك شرباس (طالب بكلية طب طنطا)
١٠ ـ سيد أحمد حنفى (فنى سباكة بمجمع الألومنيوم)

١١ ـ مصطفى على الخولى (هارب)
١٢ ـ نادية محمود محمد شكرى (طالبة بكلية آداب عين شمس)
١٣ ـ محمد محمد محمد فتيح (طالب بكلية هندسة عين شمس)
١٤ ـ عبد الحكيم تيمور الملوانى (طالب بكلية هندسة الإسكندرية)
١٥ ـ محمد هشام عبد الفتاح ابراهيم (طالب بكلية آداب جامعة طنطا)
١٦ ـ خالد عبد الفتاح ابراهيم (طالب بطب طنطا)
١٧ ـ أحمد محمد صديق (طالب بكلية الخدمة الاجتماعية)
١٨ ـ فاروق ابراهيم حجاج (طالب بكلية هندسة عين شمس)
١٩ ـ محمد شهاب الدين سعد حسن بدر (طالب بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية)
٢٠ ـ شهرت محمود أمين العالم (طالبة بكلية علوم القاهرة)
٢١ ـ أحمد عبد اللطيف حمدى عبد اللطيف (طالب بكلية آداب القاهرة)
٢٢ ـ راندة عبد الغفار البعثى (طالبة بكلية زراعة عين شمس)
٢٣ ـ نجوى عبد الغفار البعثى (هاربة)
٢٤ ـ شوقية الكردى نصر شاهين (دبلوم تجارة)
٢٥ ـ فاتن السيد عفيفى (طالبة بكلية آداب عين شمس)
٢٦ ـ رزق الله بولس رزق الله (طالب بكلية تكنولوجيا حلوان)
٢٧ ـ محمد الطيب أحمد على (هارب)
٢٨ ـ ماجدة محمد عدلى (طالبة بطب الأزهر)

٢٩ ـ عمر محمود عبد المحسن خليل (طالب بكلية هندسة عين شمس)

٣٠ ـ سميحة أحمد أحمد الكفراوى (طالبة بكلية آداب القاهرة)

٣١ ـ محمود مدحت محمد على (هارب)

٣٢ ـ أسامة خليل خليل (هارب)

٣٣ ـ إكرام يوسف خليل (طالبة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية)

٣٤ ـ محمد نعيم صادق دراج (ملازم أول احتياط)

٣٥ ـ مسعد السيد صالح الطرابيلى (مهندس بشركة الترسانة البحرية)

٣٦ ـ ثناء الله محمود محمود (فنى بشركة الترسانة البحرية)

٣٧ ـ محمد حفنى عبد الرحمن السمان (فنى بشركة الترسانة البحرية)

٣٨ ـ السيد مصطفى فلرج مصطفى (عامل بشركة الترسانة البحرية)

٣٩ ـ محمد رفيق الكردى نصر شاهين (طالب بمعهد سالذيان الإيطالى)

٤٠ ـ محمد أبو المكارم أحمد طه (فنى بمجمع الألمونيوم بنجع حمادى)

٤١ ـ صبرى رزق على سكرانة (طالب بكلية طب القاهرة)

٤٢ ـ مجيد رزق على سكرانة (مدرس بمدرسة الصنايع الثانوية ببورسعيد)

٤٣ ـ عاطف محمد عبد الجواد (طالب بكلية التكنولوجيا)
٤٤ ـ محمد حسن محمد بنوان (طالب بالمعهد الفنى الصناعى ببورسعيد)
٤٥ ـ محسن محمد عبد الحميد أبو سمرة (طالب بمدرسة بورسعيد الثانوية الصناعية)
٤٦ ـ شوقى الكردى محمد نصر شاهين (طبيب بيطرى بشركة القاهرة للأدوية)
٤٧ ـ محمد كمال محمد عبد الفتاح شعيب (هارب)
٤٨ ـ قنديل محمد يوسف منصور الشاذلى (مهندس زراعى ـ مجند)
٤٩ ـ محمد عيسى غانم (مجند بكلية ضباط الاحتياط ـ وحدة ١٤١٤ ـ ج ٤٢)
٥٠ ـ صلاح الدين يوسف عبد الحافظ (هارب)
٥١ ـ طارق محمد إبراهيم (طالب بهندسة أسيوط)
٥٢ ـ عماد حسن صيام (خريج زراعة عين شمس ـ مجند بسلاح المهندسين)
٥٣ ـ أحمد زكى أحمد محمد (هارب)
٥٤ ـ رحمة محمد رفعت محمود (هاربة)
٥٥ ـ عدلى محمد أحمد عليوة (هارب)
٥٦ ـ إبراهيم عطية الباز (طالب بهندسة الإسكندرية)
٥٧ ـ لطفى عزمى مصطفى (طالب بكلية حقوق أسيوط)

٥٨ ـ رمضان صالح أحمد السيد (طالب بكلية آداب الإسكندرية)
٥٩ ـ محمد أحمد ابراهيم الخطيب (طالب بكلية طب القاهرة)
٦٠ ـ حمدى عبد الفتاح مبروك (طالب بكلية تجارة القاهرة)
٦١ ـ رضوان مصطفى رضوان الكاشف (هارب)
٦٢ ـ محمد عواد شفق أحمد (محاسب بشركة مصر للبترول)
٦٣ ـ محب ميشيل يوسف عبود (طالب بكلية آداب إسكندرية)
٦٤ ـ أحمد محمد محمد فتيح (طالب بهندسة القاهرة)
٦٥ ـ ممدوح عتريس عطية رضوان (خريج)
٦٦ ـ محمود سيد البطار (محاسب بالمقاولين العرب)
٦٧ ـ سمير يوسف غطاس (هارب)
٦٨ ـ عطية السيد عياد (موظف بشركة كيما أسوان)
٦٩ ـ حسنى محمد محمد عبد الرحيم (طالب بهندسة الإسكندرية)
٧٠ ـ محمود محمد محمد رجال (طالب بطب إسكندرية)
٧١ ـ خالد محمد عبد الحميد مندور)
٧٢ ـ سلوى ميلاد يعقوب (طالبة بكلية هندسة عين شمس)
٧٣ ـ أحمد نصر الدين أحمد أبو بكر (مهندس بشركة الحديد والصلب)
٧٤ ـ محمد فكرى عبد الظاهر منصور الإمبابى (هارب)
٧٥ ـ السيد السيد الدماطى (عامل بمحلج شركة النيل بالمحلة)
٧٦ ـ رجب محمود جمعة (هارب)

٧٧ ـ محمد خالد ابراهيم جويلى (موظف بالدار العربية الحديثة للتجارة الخارجية)

٧٨ ـ منصور عطية رمضان (مجند)

٧٩ ـ محمد حسن خليل (هارب)

٨٠ ـ محمد بهائى محمد الميرغنى (طالب بكلية آداب عين شمس)

٨١ ـ خالد محمد السيد الفيشاوى (طالب بكلية الإعلام)

٨٢ ـ خليفة شاهين خليفة (طالب بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية)

٨٣ ـ جمعة راشد جمعة (طالبَ بطب الأزهر)

٨٤ ـ محمد عوض خميس عوض (أخصائى اجتماعى)

٨٥ ـ زكى مراد إبراهيم (محامى)

٨٦ ـ محمود محمد وفيق (هارب)

٨٧ ـ مبارك عبده فضل حجى (هارب)

٨٨ ـ سيف الدين محمد صادق (هارب)

٨٩ ـ محمد على عامر الزهار (هارب)

٩٠ ـ عبد القادر أحمد شهيب (صحفى بروز اليوسف ـ هارب)

٩١ ـ رشدى أبو الحسن محمد (صحفى بروز اليوسف)

٩٢ ـ معتز محمود زكى الحفناوى (مجند)

٩٣ ـ محمد هانى محمد الحسينى (مأمور ضرائب)

٩٤ ـ ماهر على بيومى (محاسب بوزارة الإسكان)

٩٥ ـ عبد المنعم عبد الحليم أبو النصر (محاسب بالبنك المركزى ـ مجند)

٩٦ ـ فاروق عبد الحميد عبد الموجود (هارب)
٩٧ ـ إبراهيم متولى نوار (خريج كلية الاقتصاد والعلوم السياسية)
٩٨ ـ نادر عبد الوهاب أحمد عنانى (مهندس بالمصانع الحربية)
٩٩ ـ محمد سيف الدين أحمد عبد الكريم (مدرس)
١٠٠ ـ جميل إسماعيل حقى سالم (صيدلى)
١٠١ ـ مجدى طه فتح الله شربية (فنى بشركة مصر للغزل والنسيج بكفر الدوار)
١٠٢ ـ محمد إبراهيم عويس (مدرس بالمعهد الأزهرى بأسيوط)
١٠٣ ـ محمد محمد عطا العفيفى (مفتش إدارى بشركة مطاحن وسط الدلتا بطنطا)
١٠٤ ـ عريان نصيف ناشد (مفتش تحقيقات بمديرية الزراعة بالغربية)
١٠٥ ـ جابر عبد العزيز ندا (موظف بمصنع الكاوتش بطنطا)
١٠٦ ـ شبل السيد شامل (ملاحظ صحة بمكافحة البلهارسيا)
١٠٧ ـ عبد الله السيد هاشم المغربى (عامل بشركة أتوبيس كفر الشيخ)
١٠٨ ـ بهنسى إبراهيم عبده الشهاوى (موظف بمحلات عمر أفندى بدسوق)
١٠٩ ـ محمد عبد الله محمد زهران (مدرس ابتدائى)
١١٠ ـ ماهر سمعان إسحق غبريال (محامى)
١١١ ـ زهدى إبراهيم العدوى (رسّام بمجلة روز اليوسف)

١١٢ ـ حسن علي أبو الخير (رئيس قسم تفتيش بمصنع ٤٥ الحربى)

١١٣ ـ سمير عبد الباقى عوض (مخرج مسرحى بالثقافة الجماهيرية)

١١٤ ـ سمير عبد العظيم حسن (فكهانى)

١١٥ ـ محمد محمود البرمبالى (طالب بكلية تجارة الإسكندرية)

١١٦ ـ فاروق على ناصف (مفتش بشركة أتوبيس شرق الدلتا)

١١٧ ـ عادل محمد الجردوح (مفتش مالى بمديرية رعاية الشباب بطنطا)

١١٨ ـ قطب حمزة قطب (موظف بشركة طنطا للكتان والزيوت)

١١٩ ـ فاروق أحمد رضوان (محامى)

١٢٠ ـ فاروق على ثابت (محامى بالهيئة العامة للتعاونيات للبناء والإسكان)

١٢١ ـ نصيف حنا أيوب (رئيس قسم التصدير بشركة مصر حلوان بالوايلى)

١٢٢ ـ محمد أحمد عيد ، الشهير بمحمد عيد (هارب)

١٢٣ ـ محمد محمد فتحى عبد الجواد (طالب بكلية زراعة الأزهر)

١٢٤ ـ محمد كمال عواد (عامل بشركة الحديد والصلب)

١٢٥ ـ على عبد الرازق حسن سليم (مراقب بشركة الحرير ـ كفر العلو)

١٢٦ ـ عبد الرازق محمد السيد الشربتلى (رئيس وردية بشركة مصر حلوان)

١٢٧ ـ جلال محمد السيد خليل (مراقب بشركة مصر حلوان)
١٢٨ ـ حامد السيد رمضان (رئيس قسم النسيج بشركة مصر حلوان)
١٢٩ ـ حسن بركات سيد رزق (عامل بشركة مصر حلوان)
١٣٠ ـ صلاح محمد محمد يونس (مراقب بشركة مصر حلوان)
١٣١ ـ موسى زكريا موسى (أمين مخزن بشركة مصر حلوان)
١٣٢ ـ محمد سيد على سعد (مباشر بقسم النسيج بشركة مصر حلوان)
١٣٣ ـ عبد المنعم على حنفى (نسّاج بشركة مصر حلوان)
١٣٤ ـ قدرى محمد على (ميكانيكى بشركة مصر حلوان)
١٣٥ ـ ألفونس مليك ميخائيل (رئيس قسم صيانة بشركة حلوان)
١٣٦ ـ محمد محمد إدريس (كاتب بشركة مصر حلوان)
١٣٧ ـ أحمد فهيم إبراهيم الرفاعى (مساعد رئيس وردية بشركة مصر حلوان)
١٣٨ ـ عبد السلام السيد محمود عامر (كاتب بشركة مصر حلوان)
١٣٩ ـ عبد الحليم إبراهيم عبد الدايم (عامل بشركة مصر حلوان)
١٤٠ ـ صلاح الدين حنفى رمضان (عامل بشركة مصر حلوان)
١٤١ ـ صلاح محمد عبد القادر (عامل بشركة مصر حلوان)
١٤٢ ـ رفاعى محمود رفاعى (عامل بشركة مصر حلوان)
١٤٣ ـ أحمد رضوان أحمد (مراجع بشركة مصر حلوان)

١٤٤ ـ رجب محمود الرفاعى (مساعد رئيس ورديه بشركة مصر حلوان)
١٤٥ ـ عبد الصبور عبد المنعم أحمد (رئيس قسم نسيج بمصنع القياس)
١٤٦ ـ إبراهيم إبراهيم أحمد هلال (رئيس الورشة الميكانيكية بمصنع شتا)
١٤٧ ـ غريب نصر الدين عبد المقصود (رئيس الورش الميكانيكية بالقاهرة للملبوسات)
١٤٨ ـ مجدى عبد الحميد فرج بلال (طالب بهندسة عين شمس)
١٤٩ ـ حسين محمد حسين عبد الرازق (صحفى بجريدة الأخبار)
١٥٠ ـ حمزة مصطفى حسن العدوى (محاسب بشركة الشرق للتأمين)
١٥١ ـ رفعت بيومى محمد على (هارب)
١٥٢ ـ محمد شريف أحمد مراد (هارب)
١٥٣ ـ أحمد عثمان عبد اللطيف (هارب)
١٥٤ ـ أبو المعاطى سليمان السندوبى (طالب بكلية هندسة القاهرة)
١٥٥ ـ زين العابدين فؤاد عبد الوهاب (مدرس بمعهد شبرا الدينى)
١٥٦ ـ عزت عبد الحميد صبرة (طالب بكلية تربية عين شمس)
١٥٧ ـ صلاح السيد متولى عيسى (هارب)
١٥٨ ـ أحمد فؤاد نجم (شاعر عامية)
١٥٩ ـ حمدى ياسين على عكاشة (خريج كلية حقوق عين شمس ـ مجند)

١٦٠ ـ حسين محمد محمود معلوم (طالب بكلية تربية عين شمس)
١٦١ ـ سيد عبد الغنى عبد المطلب عبد الحق (طالب بكلية تجارة عين شمس)
١٦٢ ـ أحمد عبد الرحمن الجمّال (موظف بجامعة عين شمس)
١٦٣ ـ أحمد مبروك محمد حسن (طالب بكلية هندسة عين شمس)
١٦٤ ـ محمد محمود جاد النمر (هارب)
١٦٥ ـ عبد الرحيم رياض الكريمى (مدير إنتاج بمصنع مغاغة للتجفيف)
١٦٦ ـ وجيه يوسف الشربتلى (مؤلف)
١٦٧ ـ عمرو عباس حلمى حسن (طبيب بمستشفى الجلاء للولادة)
١٦٨ ـ إيمان عطية محمد (طالبة بكلية علوم القاهرة)
١٦٩ ـ ماهر سيد بدوى (طالب بكلية علوم القاهرة)
١٧٠ ـ آمال حسين حافظ جامع (طالبة بكلية هندسة القاهرة)
١٧١ ـ محمود محمد مرتضى (طالب بكلية تجارة القاهرة)
١٧٢ ـ حسين عبد الستّار سيد أحمد شاهين (طالب بكلية تجارة القاهرة)
١٧٣ ـ مصطفى محمد مصطفى الخطيب (طالب بكلية هندسة القاهرة)
١٧٤ ـ عبد الخالق فاروق حسن محمد (طالب بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية)
١٧٥ ـ مجدى تاج الدين الخطيب (طالب بكلية آداب القاهرة)
١٧٦ ـ عفيف فؤاد صليب (هارب) .

قائمة الشرف

لمحامى الشعب المدافعين عن المتهمين
فى قضية انتفاضة ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ المجيدة
(حسب الترتيب الأبجدى)

الأساتذة

* أحمد نبيل الهلالى
* إمام الرفاعى
* أنور حسين مرزوق
* جلال رجب (دكتور)
* سامح عاشور
* صلاح عبد المجيد صالح
* صلاح موسى
* عادل أمين
* عادل سليمان
* عبد الحليم مندور (دكتور)
* عبد الرؤوف على
* عبد السلام رزق
* عبد العال محمد

* عبد الله الزغبى
* عصام الاسلامبولى
* عصمت سيف الدولة (دكتور)
* ماهر محمد على
* محمد أبو الفضل الجيزاوى
* محمد صبرى مبدى
* محمد فهيم ريان
* محمد مسعود
* محمد ممتاز نصار
* محمود عليوة
* ولى الدين الغندور
* يحيى الجمل (دكتور)

حكم محكمة أمن الدولة العليا
بدائرة استئناف القاهرة

برئاسة المستشار حكيم منير صليب رئيس المحكمة

وعضوية المستشارين على عبد الحكم عمارة، وأحمد محمد بكّار

المستشارين بمحكمة استئناف القاهرة

التي بدأت إجراءاتها بتاريخ ١٦ / ٤ / ١٩٧٨

وصدر الحكم فيها بتاريخ ١٩ / ٤ / ١٩٨٠

حكمت المحكمة :

أولاً : بانقضاء الدعوى الجنائية بالنسبة للمتهم الخامس والثمانين زكى مراد إبراهيم، بوفاته .

ثانيًا : غيابيا بالنسبة للمتهمين السابع أحمد بهاء الدين شعبان، والثالث عشر محمد محمد فتيح، والتسعين عبد القادر أحمد شهيب، والخمسين بعد المائة أحمد فؤاد نجم، وحضوريا للباقين.

ثالثًا : برفض الدفع بعدم جواز نظر الدعوى أمام هذه المحكمة بوصفها محكمة أمن الدولة العليا

رابعًا : برفض الدفع ببطلان أمر الإحالة .

خامسًا : برفض الدفع ببطلان إذن الضبط والتفتيش الصادر من رئيس نيابة أمن الدولة العليا بتاريخ ١٩ / ١ / ١٩٧٧ .

سادسًا : بقبول الدفع ببطلان الإجراءات التى قام بها رجال هيئة الأمن القومى فى الدعوى رقم ١٠ لسنة ١٩٧٥ حصر أمن دولة عليا .

سابعًا : بمعاقبة كل من المتهمين الثالث طلعت معاذ رميح، والثامن أحمد مصطفىٰ إسماعيل، والرابعة والعشرين شوقية الكردى نصر شاهين، والخامسة والعشرين فاتن السيد عفيفى، والسادس والعشرين رزق الله بولس رزق الله، والثامنة والعشرين ماجدة محمد عدلى، والتاسع والعشرين عمر محمود عبد المحسن خليل، والرابع والأربعين محمد حسن محمد بنوان، والخامس والخمسين عدلى محمد أحمد عليوة، والحادى والثمانين خالد محمد السيد الفيشاوى، والتاسع والستين بعد المائة إيمان عطية محمد، بالسجن لمدة ثلاث سنوات، وتغريمه مائة جنيه .

وبمعاقبة كل من المتهمين : العاشر سيد أحمد حنفى، والخامس عشر محمد هشام عبد الفتاح إبراهيم، والسابع والأربعين محمد كمال عبد الفتاح شعيب، والسابع والخمسين لطفى عزمى مصطفى، والسابع والثمانين مبارك عبده فضل، والثانى والعشرين بعد المائة محمد أحمد عيد الشهير بحمدى عيد، والثالث والعشرين بعد المائة محمد محمد فتحى عبد الجواد، والرابع

والستين بعد المائة محمد محمود جاد النمر ، والسبعين بعد المائة آمال حسين حافظ جامح ، بالحبس مع الشغل لمدة سنة واحدة وتغريمه خمسين جنيها ، وبراءتهم من باقى التهم المسندة إليهم .

ثامنا : براءة باقى المتهمين من التهم المسندة إليهم .

تاسعا : بمصادرة ماعدا الكتب من المضبوطات

صدر هذا الحكم ، وتلى علنا بجلسة يوم السبت الموافق ١٩ من أبريل سنة ١٩٨٠ .

رئيس المحكمة

حكيم منير صليب

أغنية الكعكة الحجرية بخط الشاعر الكبير أمل دنقل

[illegible]

ديسمبر ١٩٨٢

> كتب الشاعر الراحل أمل دنقل قصيدة « أغنية الكعكة الحجرية » في نهاية يناير عام ١٩٧٢، وكان الفنان « عبد العزيز مخيون » يحتفظ بنسخة خطية من القصيدة كتبها بخطه الشاعر منذ ذلك الحين وقد تفضل عبد العزيز مخيون مشكورا بإهداء هذه النسخة إلى المجلة من أجل نشرها في صورتها الخطية .

" أمل دنقل "

أغنية الكعكة الحجرية

أيها الواقفون على حافة المذبحه
أشهروا الأسلحه !
سقط الموت ، وانفرط القلب كالمسبحه
والدم انساب فوق الوشاح !
المنازل أضرحةٌ ،
والزنازن أضرحةٌ ،
والمدى أضرحه
فارفعوا الأسلحه
واتبعوني ؛ أنا ندم الغد والبارحه
رايتي : عظمتان وجمجمة ، وشعاري : الصباح !

دقت الساعة المتعبه
رفعت أمه الطيبه
عينها ! .
(دفعته كعوب البنادق في المركبه !)
دقت الساعة المتعبه
نهضت ، نسّقت مكتبه
(صفعته يد ـ أدخلته يد الله في التجربه ،)
دقت الساعة المتعبه
جلست أمه ، رتّقت جوربه
(وخزته عيون المحقق ..
حتى تفجر من جلده الدم والأجوبه ؟ !
دقت الساعة المتعبه !
دقت الساعة المتعبه !
دقت الساعة المتعبه !)

عندما نهضت على سياجه التقوم ليبدأ في السلام
فهم الآن يتسمرون تحت تلك قوة صوت الغمام
بعد أن أشعلوا البنادق في الشمس والسنابل
وهنا في [illegible] حيث [illegible] الحوصلة
وهنا نفترق منذ الألف عام
هنا الخيام!
هنا نرتقي درج المقصلة!

[دقت الساعة القاسية
وقفوا في ميادين الجبهة القاسية
وانسدلوا على درجات الغضب
شجراً [illegible]
تعصف الريح.. ودقات الغضبة ثانية
تتلو: بيروت.. [illegible]..

(بيروت البعيدة،
دقت الساعة القاسية
- انظروا! [illegible] ثانية
تعلو السيارة الرقم الحمراء، وتحته الثانية:
- سوف ستحرقون إذاً البرلمان ودوائر الشعب

دقت الساعة الثانية
كان صباح [illegible] يذيع أحاديثه الثانية
[illegible]
[illegible]،
سيتمرون على [illegible] الحرية تحت السقف
[illegible]
في [illegible]: وصوت يكتسي [illegible]
[illegible] بقوة [illegible] مصر جديدة
دقت الساعة الثالثة
دقت الساعة القاسية

أمل دنقل

صورة من قرارات اللجنة الوطنية العليا

ان جماهير طلاب جامعة القاهرة المجتمعين الآن داخل الحرم الجامعي يتوجهون الى السيد رئيس الجمهورية ويدعونه للحضور الى مؤتمرهم للاجابة على استفساراتهم والاستماع الى مطالبهم فهم يعرضون الاستفسارات الآتية :-

أولا – حول بيان السيد رئيس الجمهورية :

١ – كيف اتخذ قرار الحرب في أول ديسمبر الماضي والجبهة الداخلية غير مهيأة ثم نتساءل أين استبقى الجبهة الداخلية .. وهل كنا سندخل الحرب بهذه الصورة ؟

٢ – التساؤل عن معنى منطق التبرير بالضباب .

٣ – يتردد في الأوساط الطلابية أن حجم المساعدات المقدمة من الاتحاد السوفييتي لمصر مقيدة في الظروف الحالية ، ورد في خطاب السيد الرئيس أن هناك مباحثات تجري الآن على أعلى مستوى بيننا وبين الاتحاد السوفييتي ونحن نتساءل عن طبيعة هذه المباحثات .

٤ – اذا كانت الولايات المتحدة هي عدونا الأول في المنطقة كما هو واضح منذ سنوات بعيدة .. فلماذا لم يتخذ ازاءها موقفا عمليا حتى الآن لضرب مصالحها في مصر أولا والمنطقة العربية ثانيا ؟

٥ – تساؤل عن معنى تغيير الوزارة السابقة بعد أيام قليلة من موافقة مجلس الشعب بالاجماع على برنامجها .. وهل لم تكن الوزارة السابقة وزارة حرب ؟

٦ – تساؤل عن عدم اتباع سياسة موحدة في المجال الخارجي بدول اتحاد الجمهوريات العربية .

المطالب :

١ – رفض الحل السلمي بأشكاله المختلفة واعلان سحب الموافقة على ما يلي :-
أ) قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ .
ب) مشروع روجرز .
ج) المبادرة المصرية .

٢ – تسخير امكانيات الدولة الاقتصادية من أجل المعركة .. ويكون ذلك عن طريق :
أ) الغاء الامتيازات وبدل التمثيل .
ب) تحديد حد أعلى للأجور بعشرة أمثال الحد الأدنى .
ج) توجيه كل طاقات المصانع الحربية لانتاج الاسلحة الصغيرة والذخائر .
د) ايقاف استيراد الكماليات .
هـ) الكف عن التوسع في المجالات التي لا تخدم الحرب .

٣ – رفض ربط الاقتصاد المصري بالمصالح الامبريالية مثل [illegible] .

٤ – البدء فورا في تعبئة جماهيرنا في شكل قوى قوامها فرق من الطلاب والعمال والفلاحين .

٥ – البدء فورا في تدريب الطلاب عسكريا بجدية ومقاطعة التدريب العسكري لطلاب الجامعات بصورته الحالية ومراعاة الناحية النفسية لهم لمواجهة احتمالات الحرب الطويلة ضد العدو .

٦ — ان اجهزة الاعلام المتمثلة في الصحافة لعبت دورا خطيرا في تشويه ما حدث في الجامعة ولذا نطالب برفع الرقابة عن الصحف وابتكار اسلوب تعميم الحقائق والمطالبة بمحاسبة المسئولين عن التضليل السياسي من السلطة واجهزة الاعلام وعلى راسهم محمد حسنين هيكل وموسى صبري .

٧ — رفض مبدأ التعيين والترشيح الواحد في التنظيمات السياسية وتسجيل اعتراضنا على طريقة اختيار اللجنة المركزية كما لا نرى اى مبرر لتعيين السيد المهندس سيد مرعي سكرتيرا اول للجنة المركزية .

٨ — كفالة حرية التعبير داخل الجامعات عن طريق : —

أ) تعديل اللائحة الجامعية وتغيير كل القوانين المعطلة للحريات .

ب) الغاء مكاتب الامن ولجان النظام واستبدالها بنقط حراسة مركزية خارج الكليات .

٩ — الافراج عن عمال حلوان وعودة اللجان النقابية التي اشهرت نتيجة الاعتصام .

١٠ — التأييد الكامل والمطلق لمختلف المنظمات الفلسطينية والقضاء على أي محاولة لتصفيتها والسماح للمصريين بالتطوع في صفوفها ودعمها ماديا .

١١ — الافراج عن الابطال الاربعة الذين نفذوا حكم الشعب العربي في وصفي التل .

١٢ — قطع العلاقات مع الاردن واتخاذ مواقف واضحة ضد النظم الرجعية التي تحمي مصالح الامبريالية في المنطقة العربية .

١٣ — المطالبة باتخاذ موقف واضح ضد ايران .

١٤ — رفض الهاء الجماهير بمثيرات جانبية مثل كرة القدم والبرامج الاعلامية المعتمدة على الاثارة وغير ذلك من الاساليب التي تبعد الجماهير عن جو المعركة .

خاتمة :

نعلن أننا اذ نتقدم بهذه الاستشارات والمطالب فاننا سنستمر في اجتماعنا بقاعة ناصر حتى حضور السيد رئيس الجمهورية للرد على هذه الاستشارات كل الديمقراطية للجماهير .. كل النضال للوطن .

جامعة القاهرة

٢١ فبراير

العدد الثاني
٧٦/١١/١٩

نشرة داخلية يصدرها

نادي الفكر الاشتراكي التقدمي

ما يبين عادت للثوار • فوق الدم وتحت النار
جدوا نوبيدوا •• زرعوا فحصدوا ، واحنا اديناّ للسمسار
واللي قالوه المشاربة ، واللي حكاه السماردار
شئ ياصني
لما قريو القرايحية بالمستعجل والمشتار
حتموتوا بحزم الصوت عن امريكا وحول امريكا
زعموا الناشئين شايل موت سقط الموت بحلم امريكا
جنكوا نتيجة باضيقة مطبوخه وباطله فصيحة وجابوه العار
تنجية وفرونجة وسمارجية وسماردار
سيجي دورة يا ثوار ، عادت حرة للاحرار
واحنا حنغنيلكو اغاني
اسمع واكتب باكتبالي
واكتب عندك في الاوراق
مصر بتنفح بالاشواق
مصر عروسة ومكره عريس
والعشاق احنا العشاق
بيننا وليها ويبنا ثورة
احنا الثورة بعد التاريخ الماضي ولينا الحاضر
والمستقبل معه الثاني

شاعر الشعب المصري الاصيل
احمد فؤاد نجم

الشهيد "محمد عزت بيومى"، طالب المرحلة الثانوية بالمنصورة، أول شهداء ثورة ١٩١٩، سقط على كوبرى "شبرا"، برصاص الانجليز، يوم ١١ مارس ١٩١٩

مشاركة الفتيات والسيدات فى وقائع ثورة ١٩١٩ : الثورة تحرر الجميع

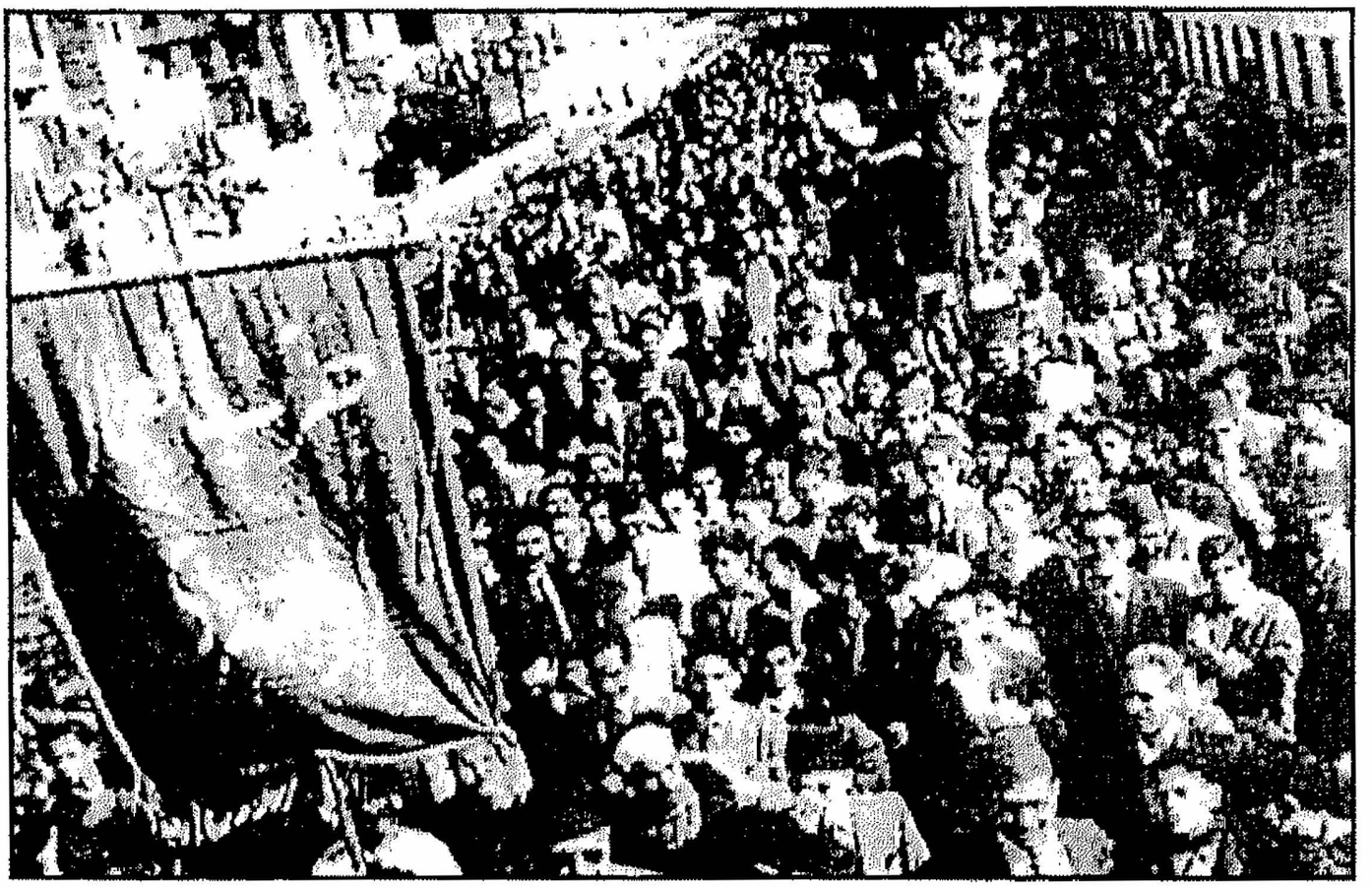

مظاهرة حاشدة لـ"حزب العمال المصرى"، فى الثلاثينيات: حضور بارز للطبقة العاملة المصرية، قوة أساسية فى معادلات الصراع

قوات البوليس تواجه مظاهرات الطلاب عام ١٩٣٥

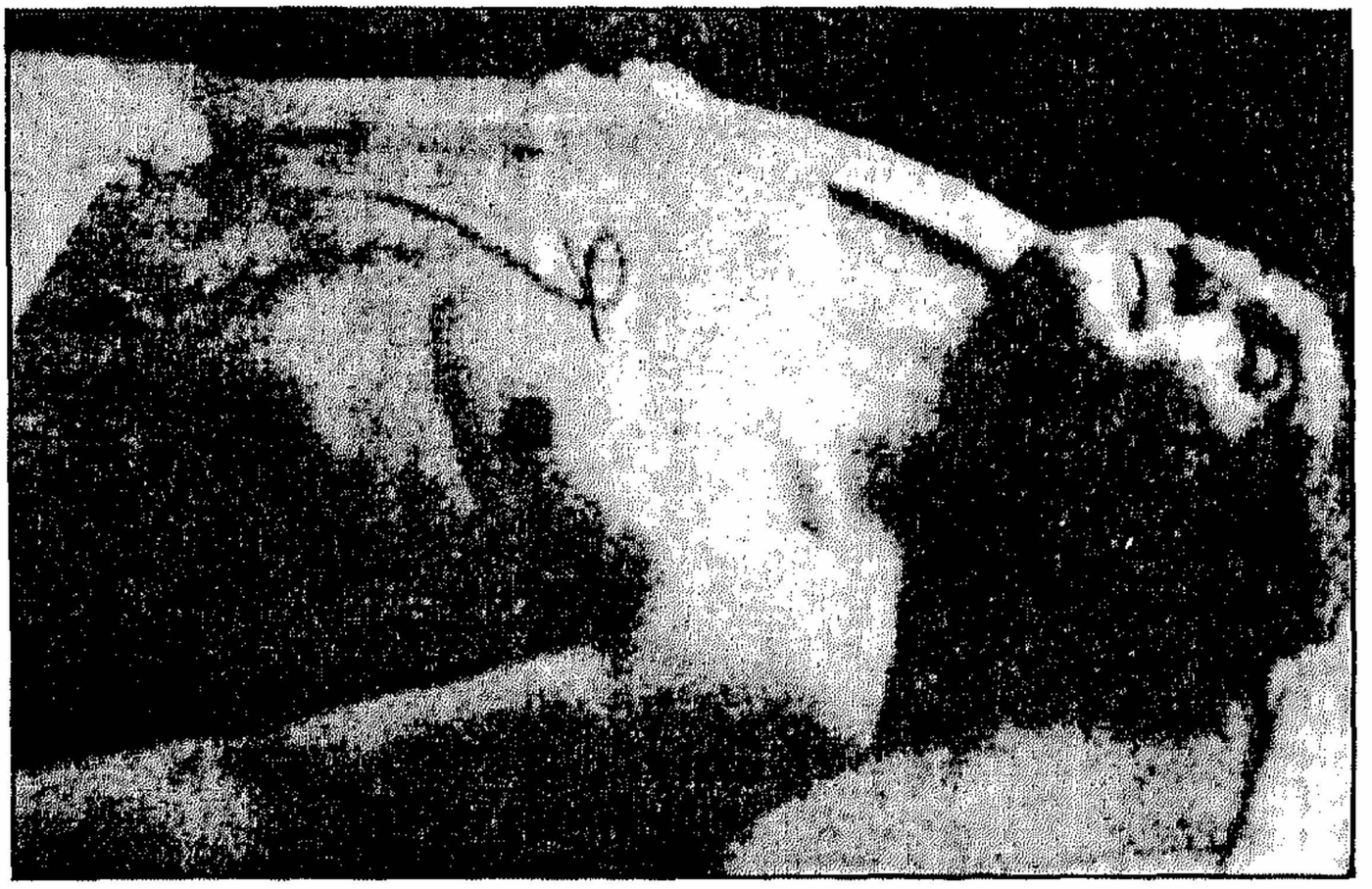

جثمان الشهيد "عبد الحكم الجراحي"، مسجّى في المشرحة، بعد أن أردته رصاصات

جماهير الشعب والطلاب يحتلون "ميدان التحرير" يوم ٢٤ يناير ١٩٧٢، احتجاجاً على اقتحام الأمن للجامعة واعتقال قادتها!. عن هذه اللحظة كتب الشاعر العظيم، "أمل دنقل" رائعته "أغنية الكعكة الحجرية"

قادة الحركة الطلابية فى قاعة المحكمة، ويبدو "أحمد بهاء الدين شعبان" فى الصورة الأولى، و"أحمد عبد الله" فى الصورة الثانية

فى مفاوضات قادة الحركة الطلابية مع السلطة، ممثلة فى المهندس "سيد مرعى"، الأمين العام لـ"الاتحاد الاشتراكى العربى"، ود. "أحمد كمال أبو المجد"، وزير الشباب، ويبدو طالب الهندسة "أحمد بهاء الدين شعبان" فى أقصى يسار الصورة

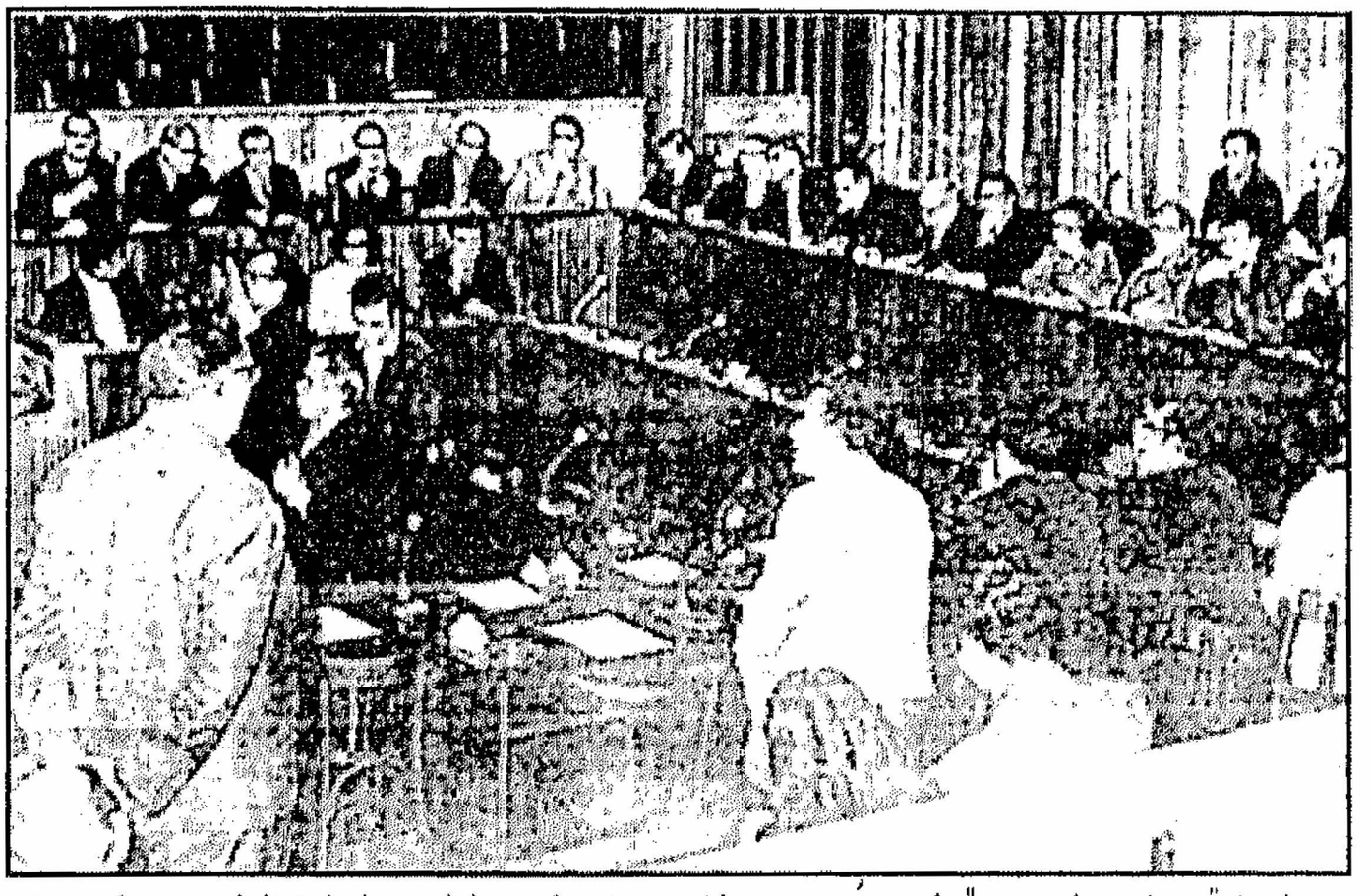

جلسة "مجلس الشعب" التى خُصصت للاستماع إلى مطالب الحركة الطلابية، كل ما اتُفق عليه أهدر، واقتحمت الجحافل الأمنية الجامعة لاعتقال الطلاب المعتصمين

فى قفص المحكمة : عدد من القيادات الطلابية فى السبعينيات ، منهم القائدة البارزة طالبة الهندسة "سهام صبرى" ، وطالب الطب "حسام عبد الله" ، يتداولون مع محاميهم

دور الفنان الخالد الشيخ "إمام عيسى" ، مُغنّى الشعب والثورة ، ودور الفنان الكبير ، الملحن والمُغنّى الكبير "عدلى فخرى" ،ودور الشعراء الكبار : "أحمد فؤاد نجم" ، و "سمير عبد الباقى" ، و "زين العابدين فؤاد" ، و "فؤاد قاعود" ، و "نجيب شهاب الدين"

"أنور السادات" مهددا : "سأفرم المعارضين" ، و"الديمقراطية لها أنياب" ، و"انتفاضة يناير انتفاضة حرامية" ! !

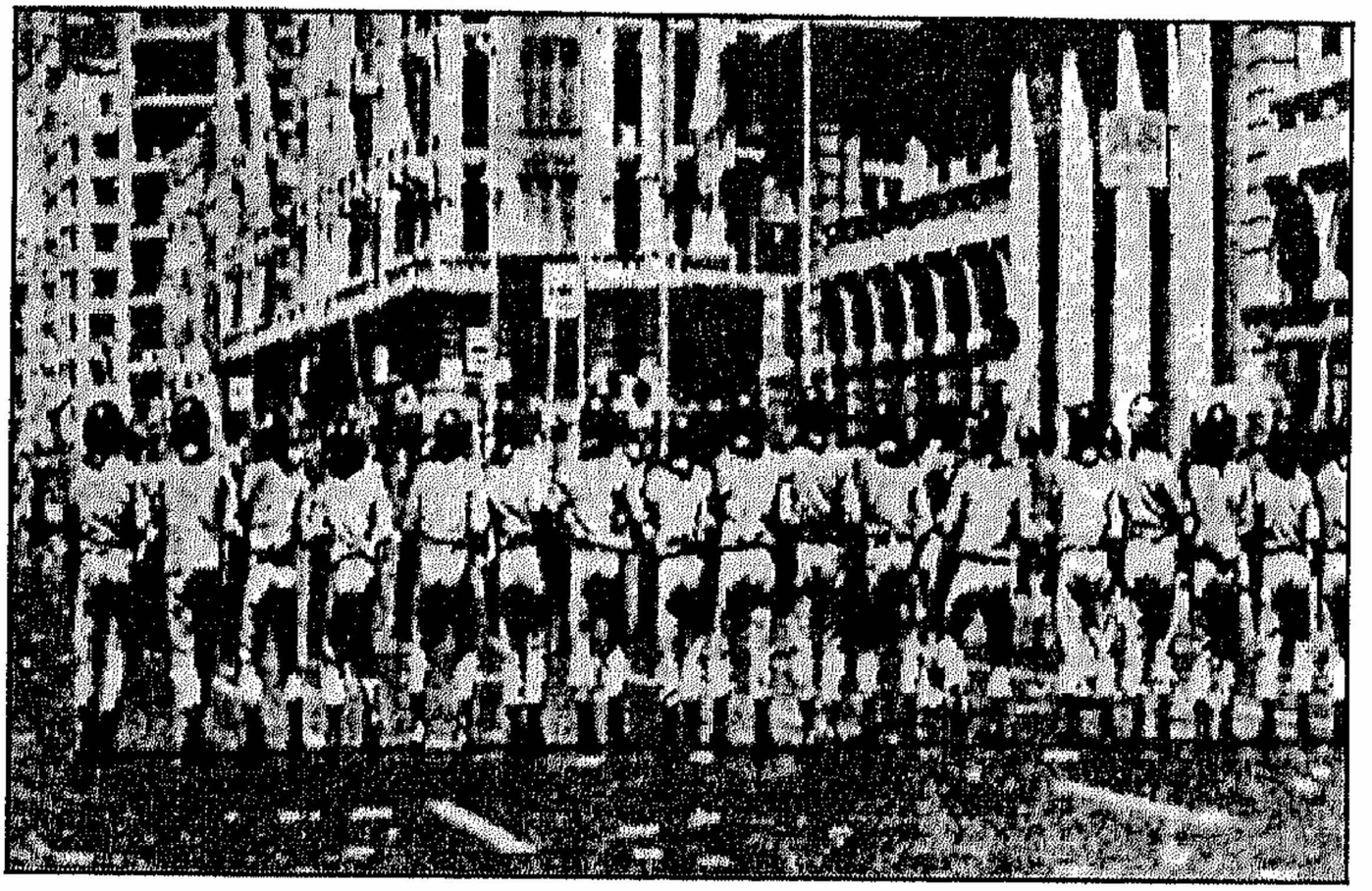

١٨و١٩ يناير : قمع السلطة فى مواجهة غضب الشعب !

أعضاء هيئة محكمة متهمى قضية ١٨و١٩ يناير ١٩٧٧ الشرفاء، يتقدمهم القاضى النزيه المستشار "حكيم منير صليب"، الذى قضى ببراءة الجميع من التهم الملفقة التى كالتها لهم أجهزة الأمن!

جانب من هيئة الدفاع فى قضية ١٨و١٩ يناير ١٩٧٧، يبدو فى أقصى اليسار الأستاذان :أحمد نبيل الهلالى، و د. "عصمت سيف الدولة"

مجموعة من المناضلين، من مختلف فئات الشعب، من المتهمين بالتحريض على انتفاضة ١٨و١٩ يناير، فى قفص الاتهام

الكتاب

*** أحمد بهاء الدين شعبان محمد الشافعى**

- الميلاد : الرابع من فبراير عام ١٩٤٩ .
- الدراسة : درس الهندسة الميكانيكية بكلية الهندسة - جامعة القاهرة .
- من مؤسسى " جماعة أنصار الثورة الفلسطينية "
- أمين نادى الفكر الاشتراكى "
- ساهم فى تنظيم وقيادة الانتفاضة الطلابية الديمقراطية
- انتخب عضوا باللجنة الوطنية العليا للطلاب .
- اتهم بالمشاركة فى تفجير وقيادة الانتفاضة الجماهيرية يومى ١٨ ، ١٩ يناير ١٩٧٧ .
- شارك المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية . من الفترة من ١٩٧٨ حتى الغزو الإسرائيلى لبيروت عام ١٩٨٢ .
- عضو أمانة " الحركة الشعبية لمقاومة الصهيونية ومقاطعة إسرائيل "
- عضو أمانة " اللجنة المصرية العامة لمقاطعة السلع والشركات الإسرائيلية والأمريكية "
- عضو مؤسس فى "الحركة المصرية من أجل التغيير" ـ "كفاية" .

- الأمين العام ووكيل المؤسسين لـ "الحزب الاشتراكى المصرى"، وعضو قيادى بتحالف الأحزاب والقوى الاشتراكية.
- المنسق العام لـ "الجمعية الوطنية للتغيير".
- عضو القيادة الجماعية لـ "جبهة الإنقاذ الوطنى".
- الأمين العام لـ "اللجنة الوطنية للدفاع عن حقوق وحريات الفكر والإبداع".

*** مؤلفاته :**

- ٤٨ ساعة هزت مصر
- النفط العربى والاستراتيجية الأمريكية
- الحركة السطلابية الحديثة فى مصر . . تجربة ربع قرن (بالاشتراك مع د . أحمد عبد الله)
- الاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية عام ٢٠٠٠
- اتفاق غزة ـ أريحا . . الملامح والنتائج السياسية والاقتصادية .
- حاخامات وجنرالات . . الدين والدولة فى إسرائيل .
- انحزت للوطن
- ما بعد الصهيونية وأكذوبة حركة السلام فى إسرائيل .
- الدور الوظيفى للعلم والتكنولوجيا فى تكوين وتطوير الدولة الصهيونية .
- الديمقراطية المغدورة فى الشرق الأوسط الجديد
- رفة الفراشة : "كفاية"، الماضى والمستقبل
- إسرائيل من الداخل : الآن . . . ومنذ نصف قرن (بالاشتراك)
- جيل السبعينيات : الروافد الثقافية والاجتماعية والسياسية
- حدود الإصلاح السياسى (بالاشتراك)
- الشرق الأوسط الجديد : بين المقاومة وبداية النهوض الشعبى (بالاشتراك مع اللواء أبو أحمد فؤاد) .

- الحرب السادسة : النصر المختطف (بالاشتراك)
- سنة ١٩١٩
- مسرحية عن عام الثورة، تأليف "فيلبس جرجس"
- صراع الطبقات فى مصر المعاصرة
- الحركات الاجتماعية من بورتو إليجرى إلى ربيع العرب
- العلم والسيطرة
- من ثقافة المقاطعة إلى ثقافة المقاومة

*** تحت الطبع :**

- الجماعة المارقة .
- قبل الفجر بلحظة .
- جيل السبعينيات فى السياسة المصرية .
- الحركة المصرية من أجل التغيير ـ "كفاية" : القصة الحقيقية .
- الثورة والثورة المضادة .

المحتوى

- انتفاضة الجامعة المجيدة أحمد فؤاد نجم 7
- صفحات من نضال الحركة الطلابية والشبابية المصرية 13
المقدمة في وصل ماانقطع ! 15
(١) نشأة القاعدة الطلابية (الحديثة،
في عهد "محمد علي باشا" وخلفائه 23
(٢) علي مبارك أبو التعليم المصرى الحديث 31
(٣) الثورة العُرابية : "لقد خلقنا الله أحراراً" ! 35
(٤) مصطفى كامل : بلادى بلادى .. لك حبّى وفؤادى 39
(٥) محمد فريد : خادم مصر المخلص ! 43
(٦) مصر ١٩١٩ : الاستقلال التام أو الموت الزؤام ! 49
(٧) الحركة الطلابية في الثلاثينات 51
(٨) ثورة شباب ١٩٣٥ 53
(٩) حركة الشباب الوطنية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية 57
(١٠) ميلاد جديد للحركة الطلابية 63
- بطلة من هذا الزمان 97
- ٤٨ ساعة هزّت مصر ! 115
- اليوم الثاني ١٩ يناير ١٩٧٧ 141
- ملاحق الكتاب 159

صدر مؤخراً فى سلسلة

حكاية مصر

14- حكاية الشيخ حسن طوبار ..... أحمد طوبار

15- حكاية معركتين من أجل الحرية ..... منال القاضى

16- حكاية مشايخ القرى ..... د. رضا أسعد شريف

17- حكايات مصرية من القنال ..... سليم كتشنر

18- حكاية يهود مصر ..... عمر مصطفى لطف

19- حكاية الدساتير المصرية ..... ماهر حسن

20- حكاية مكتبة الإسكندرية القديمة .....حسام الحداد

21- الصحافة والحركة الوطنية المصرية .... د. لطيفة محمد

22- حكايات المجموعة ٣٩ ..... محمد الشافعى

23- حكاية المسرح القومى..... د.عمرو دوارة

24- حكاية البنك الأهلى المصرى ..... محمد مبروك محمد قطب

25- حكاية حى مصر القديمة .... د. خالد حامد السيد أبو الروس

شركة الأمل للطباعة والنشر
(موراڤيتلى سابقاً)
ت:23904096 - 23952496